العنوان: كتب الطبقات : نشأتها و أصنافها إلى أواخر القرن الرابع للهجرة و دورها في البحث التاريخي

المصدر: أعمال المؤتمر الدولي الأول : النخب والسلطة السياسية في العالم العربي الإسلامي من خلال كتب الطبقات - كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة - تونس

المؤلف الرئيسي: لطيف، محمد العادل

محكمة: نعم

التاريخ الميلادي: 2012

مكان انعقاد المؤتمر: تونس

رقم المؤتمر: الأول

الهيئة المسؤولة: جامعة منوبة

الصفحات: 129 - 156

رقم MD: 623247

نوع المحتوى: بحوث المؤتمرات

قواعد المعلومات: HumanIndex

مواضيع: كتب الطبقات، المصادر التاريخية، التوثيق، التراجم، التراث الإسلامي، التاريخ الإسلامي

رابط: http://search.mandumah.com/Record/623247

كتب الطبقات : نشأتها وأصنافها إلى أواخر القرن الرابع للهجرة ودورها في البحث التاريخي.

محمد العادل لطيّف
جامعة جندوبة/تونس

تمهيد

خلف لنا التراث العربي الإسلامي إرثا هاما من الأدبيات المكتوبة في مختلف ميادين المعرفة[1] ،وتعددت الكتابات ذات الصبغة التاريخية بكيفية يستحيل معها أن نلمّ بها بإسهاب أو أن نحلل محتوياتها دون اللجوء إلى تصنيفها والتحرّي في أطرها المعرفيّة التي أدّت إلى ظهورها وانتشارها واستعمالها بصفة مكثفة.من خلال هذه الدراسة، سأحاول المساهمة والانخراط في ميدان البحث حول دور كتب التراجم والطبقات في الكتابة التاريخية بالمجال العربي والإسلامي بالنظر في الفرق بين مصطلحات المعارف التي تمثل مَعينا لكتابة الطبقات، مثل المغازي والسير والتراجم وعلم معرفة الرجال والأنساب، متطرّقا إلى ظروف نشأة كتب الطبقات وتطوّرها إلى أواخر القرن الرابع للهجرة. وسأعمل على تصنيف بعضها حسب توجّهاتها المذهبية ومحتوياتها المعرفيّة كي أخْلص إلى كيفيّة استعمالها في الدراسات التاريخيّة الحديثة ومدى أهميتها في دراسة التاريخ.
لم يكن المؤرّخ أو الكاتب العربي المسلم خلال فترة القرون الوسطى بمنأى عن التوجّهات المذهبية والصراعات السياسية التي شهدها المجال العربي الإسلامي. والعديد منهم كان على وعي بهذه الانحرافات والتشوّهات التي تلحق التأليف[2]. لذلك تصبح القراءات الموازية لهذا الصنف من المصادر التاريخيّة ومقارنة المعطيات ببعضها البعض، ضرورة علمية تفرض نفسها على الباحث المعاصر، إذ من شأنها أن تكشف لنا الأهداف المخفية والمطمورة التي تمّ التستّر عنها، واستجلاء كيفيّة توظيفها ضمن مسار الكتابة التاريخيّة. إنها قراءة لما بين السطور في محاولة لإبراز الفجوات التي

1- يعترف كلا من جان سوفاجيي وكلود كاهين أن « المؤرّخ الإسلامي ... لديه قدرا من المصادر الأدبية أكبر مما أنتجته أية حضارة أخرى حتى العصر الحديث.» *مصادر دراسة التاريخ الإسلامي*، ترجمة عبد الستار الحلوجي وعبد الوهاب علوب، القاهرة، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، 1998. ص 49.(صدر الكتاب في لغته الأصلية (الإنجليزية) سنة 1965، تحت عنوان : *Introduction to the history of the Muslim east*, by Jean Sauvaget & Claude Cahen.
2- أنظر تاج الدين السُّبكي، *طبقات الشافعية الكبرى*، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1976، 2/ 22-24، حيث يقول : « ... : *فإن أهل التاريخ ربما وضعوا من أناس ورفعوا أناسا، إما لتعصّب أو لجهل، أو لمجرد اعتماد على نقل من لا يوثق به، أو غير ذلك من الأسباب. والجهل في المؤرخين أكثر منه في أهل الجرح والتعديل. وكذلك التعصّب قلّ أن رأيت تاريخا خاليا من ذلك* ».

خلفها المصنّف عند تحريره للترجمة متمسكا بنوع من الحريّة في التصرّف في معطياته[1]، لا سيما وإن أغلبها قد تم تدوينها في ظروف سياسية وعقائدية متأزّمة، فاصطبغت رواياتها بصبغة منحازة ضيقة يمكن أن تعيق البحث إن لم يكن الباحث واعيا بمختلف هذه الاتجاهات والمؤثرات.

I. من المغازي والسير وعلم معرفة الرجال والأنساب إلى كتب الطبقات والتراجم :

1. المغازي والسير[2] :

لقد انبثقت الكتابة التاريخية في الحضارة العربية الإسلامية من جملة تطوّرات فكرية شهدتها مجالس الخاصة من الأعيان والولاة والأشراف بالمدينة ودمشق منذ العقود الأولى لوفاة الرسول. فمن أحاديث لبعض الروّاة[3] التي تحوّل بعضها إلى كتب في المغازي، تمّ تدوين كتب السّيرة[4] التي ضاع أغلبها ولم تصلنا منها سوى :

- المغازي النبويّة لابن شهاب الزهري (124هـ).
- سيرة محمد ابن إسحاق بن يسار(151هـ).
- كتاب السير، لأبي إسحاق الفَزَاري (186 هـ).[5]
- مغازي الواقدي[6] محمد بن عمر(208هـ).[7]
- السيرة النبوية لعبد الملك ابن هشام (218هـ). وهي نسخة "مهذبة"

---

1 Joana Jean, Les usages de la méthode biographique en sciences sociales, In: [*Revue de science politique de l'Europe méridionale*, semestrielle *Pôle Sud*, soutenue par le CNRS (Centre d'Etudes Politiques de l'Europe Latine) et la Faculté de droit et de science politique de l'Université Montpellier 1.], N°1, 1994, p, 91.

2 نذكر أن المغازي تدلّ على غزوات الرسول وحروبه رفقة صحابته، وسرايا قادته، رغم إنها قد تناولت عصر الرسالة بكامله، ويكون ذلك حسب الموضوعات؛ في حين أن كتب السيرة قد اشتملت، إضافة إلى الغزوات والسرايا، شمائل النبي ومولده وصفاته وخصائص البعثة ومعجزاته ووفاته... وتَرِدُ الروايات مرتبة على السنين حسب وقوع الحوادث.

3 من بين هؤلاء نذكر: عروة بن الزبير بن العوام، (حوالي 94هـ). كان جدّه العوّام خال خديجة بنت خويلد، وأمه أسماء بنت أبي بكر، أخت عائشة زوجة الرسول. كان صديقا لعبد الملك بن مروان، رحل إلى مصر حيث قضّى سبع سنوات ثم إلى دمشق مرّة أولى في رعاية صديقه الخليفة، ومرّة ثانية في عهد الوليد بن عبد الملك، كما كان يتردّد على عمر بن عبد العزيز والي المدينة والخليفة اللاحق. ثم أبان بن عثمان بن عفان: (105هـ)، كان واليا على المدينة لمدة سبع سنوات في عهد عبد الملك بن مروان. ثم وهب بن مُنبه(114هـ)، وعاصم بن عمر بن قتادة(120هـ) وشُرحْبيل بن سعد(123هـ) وابن شهاب الزهري(124هـ) وعبد الله بن أبي بكر بن حزم(≈ 130-135هـ) وهو من شيوخ ابن اسحاق. أنظر حول هؤلاء: يوسف هوروفيتس(Josef Horovitz)، *المغازي الأولى ومؤلفوها*، ترجمة حسين نصّار، القاهرة، 1949.

4 المرجع السابق، ص 2.

5 دراسة وتحقيق فاروق حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة أولى، 1987، 420 ص.

6 تحقيق مارسدن دجونس، (Marsden Jones)، منشورات جامعة أكسفورد، لندن، 1965، ج1، و1966، ج2، وصدرت عن دار عالم الكتب بالرياض سنة 1984 في طبعتها الثالثة، جزآن. ويشير المحقق في آخر الجزء الثاني، إلى جزء ثالث سيتم نشره لاحقا، لكننا لم نعثر عليه.

7 هاملتون جب، *دراسات في حضارة الإسلام*، بيروت، دار العلم للملايين، ط 3، 1979، ص 149.

ومختصرة من سيرة ابن إسحاق.
وسنحاول في هذا البحث استعراض الكتب الأولى لهذه المغازي والسير، والتي أصبحت في متناول الباحثين :

- المغازي النبويّة لابن شهاب الزهري : أخذ عنه العديد ممن أتى بعده ولا سيما مالك بن أنس والأوزاعي وابن إسحاق. ويربط المحقق (سهيل زكار) في مقدمته بين ظروف كتابة الزهري لمغازيه وبين السياسة الأموية التي كانت تهدف إلى القضاء على بقية المصادر المحتملة لمسيرة النبيّ قبل فتح مكة وذلك من خلال التصفية الجسدية (واقعة الحرّة سنة 63هـ في عهد يزيد بن معاوية) لجل علماء المدينة. « *وعلى الرغم من علاقاته ببني أميّة، هنالك إجماع لدى المحدثين على توثيق الزهري واعتماد رواياته.*»[1]
- سيرة ابن إسحاق المسماة بالمبتدأ والمبعث والمغازي[2] : واجه ابن إسحاق عدة اتهامات استنقاصا من مقدرته ومعرفته لمجرّد أن كتاباته لم تكن تتوافق مع غايات المحدثين والمفسّرين، فلم يرو عنه الطبري، واتهمه مالك بن أنس بالدجّال. وقد أجبر على الهجرة إلى العراق سنة 132هـ (749م).[3] وفي الثلث الأوّل من القرن الثامن، نجد ابن سيد الناس اليعمري(734هـ) قد لخّص أقوال ومواقف الفقهاء الأوائل في ابن إسحاق ضمن كتابه "عيون الأثر"، مدافعا عنه مستعرضا جلّ الروايات التي أتّهم من أجلها بالكذب.[4]
- كتاب السير، لأبي إسحاق الفزَاري (ت: 186هـ) : وُضع في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة. وتتجلى أهميته في أن شيوخ المصنف هم من أتباع التابعين كالأوزاعي والثوري وهشام بن عروة. نوّه به الشافعي وفضّله عن كل ما كُتب في عصره، كما مجّده ابن تيميّة لما يحتويه الكتاب من معلومات حول الغزو والجهاد خلال فترة صدر الإسلام. ويفيدنا بنوعية العلاقات التي كانت تربط بين علماء القرن الثاني. كما نجد به عديد النصوص التي تم توظيفها لصالح الأحكام الفقهية مثل الربا ونبش القبور والبيع والشراء والخيانة وبيع الأحرار والإمارة في الحروب والبيعة وما تستلزمه من طاعة والضرورة الشرعيّة...
- كتاب المغازي للواقدي : لقد كانت للواقدي علاقات وطيدة بالبرامكة.[5] ورغم تضعيف المحدثين الأوائل لرواياته، مثل البخاري

---

1 الصفحة 30 من مقدمة المحقق. دار الفكر، دمشق، 1981.

2 أنظر حول هذه الكلمات: "المبتدأ"، "المبعث"، "المغازي"؛ هاملتون جب، *علم التاريخ*، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص 55-56.

3 كتاب المغازي للواقدي، تحقيق مارسدن دجونس، دار عالم الكتب، الرياض، 1984، 26/1. وأنظر كارل بروكلمان، *تاريخ الأدب العربي*، القاهرة، دار المعارف، ط5، ، 6 أجزاء.، 11/3.

4 ابن سيد الناس اليعمري، *عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير*، مكتبة دار التراث – دار ابن كثير، المدينة المنوّرة، دمشق بيروت، د. ت.، (جزآن).59/1-67.

5 فيقول:«صار إليّ من السلطان ستمائة ألف درهم، ما وجبت عليّ فيها الزكاة.» ويظل الواقدي ببغداد حيث جعله المأمون قاضيا لعسكر المهدي *كتاب المغازي* للواقدي تحقيق مارسدن دجونس 7/1.

والنسائي والدارقطني، فقد وثقه ومدحه غيرهم.[1]
اعتمد الواقدي على من سبقه في تدوين السيرة وخاصة الزهري[2] لكنه أعرض عن الرواية عن ابن إسحاق نظرا لعدم توثيق علماء المدينة له.[3] ولعل هذا الكتاب قد يفيد الباحث في عدّة ميادين أخرى، مثل *الأدب الجغرافي.*[4] كما « *يلقي الضوء على مشاهد كثيرة من الحياة في فجر الإسلام، مثل الزراعة والأكل والأصنام والعادات في دفن الموتى ...، وبالجملة على جميع مظاهر الحياة في المجتمع الإسلامي في الفترة بين الهجرة وموت النبيّ.*»[5]

- سيرة ابن هشام الحميري : يشير ابن هشام صراحة إلى أنه قد قام بـ " تهذيب " سيرة ابن إسحاق.[6] ويبدو أنه لم يغيّر في صلب النص الأصلي، بل قام بحذف بعض المقاطع مباشرة، ويمْكننا بسهولة الوصول إلى محذوفاته بفضل الأزرقي (أخبار مكة) والمطهر بن طاهر البلخي (البدء والتاريخ)،[7] كما أضاف ابن هشام عدّة تصحيحات في الأنساب واللغة، يشير إليها دائما إنها من عنده.[8]

رغم كل الإيجابيّات التي تجلت من خلال معطيات كتب السيرة والمغازي، فإنها تظلّ مرتبطة بمناخها وأطرها السياسية والتاريخيّة والثقافية؛ فهي قد تولدت من علم الحديث الذي اعتمد على الإسناد،[9] وبما أن الرواية تستمد قوّتها أو ضعفها من أسانيدها أساسا، فيكون من الضروري التحرّي من كل هذه الكتابات واستعمالها بنظرة ناقدة،[10] لاسيما وإن كل المؤرخين، قد تساهلوا كثيرا في تدوين الروايات التاريخية،[11] إضافة إلى

---

1 مص، ن، ص 30/1.
2عبد العزيز الدوري، *بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب*، العين، الإمارات العربية المتحدة، مركز زايد للتراث والتاريخ، 2000. ص27.
3 *كتاب المغازي* للواقدي، تحقيق مارسدن دجونس، 30/1.
4 مر، ن، ص 31/1-32.
5 مر، ن، ص 34/1.
6 « *... وأنا – إن شاء الله تعالى – مبتدئ هذا الكتاب بذكر ... وترك ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سببا لشيء من هذا الكتاب ولا تفسيرا له ولا شاهدا عليه، لِما ذكرت من الاختصار، وأشعارا ذكرها لم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يقرّ لنا البكائي* (183هـ/799م) *بروايته*.» ابن هشام الحميري، *سيرة النبيّ ﷺ*، تحقيق مجدي فتحي السيّد، دار الصحابة للتراث، طنطا، 1995، 5 أجزاء، 40/1-41.
7 كارل بروكلمان، *تاريخ الأدب العربي*، 11/3.
8 يوسف هوروفيتس(Josef Horovitz)، *المغازي الأولى ومؤلفوها*، ص 82-83.
9 أنظر حول الإسناد: أكرم ضياء العمري، *بحوث في تاريخ السنة المشرّفة*، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحِكَم، ط 5، 1994، ص 44-58.
10 مصطفى شاكر، *التاريخ العربي والمؤرخون*،ج1، بيروت، دار العلم للملايين، طبعة 1983، 79/1.
11 انظر: بشّار عوّاد معروف، *مظاهر تأثير علم الحديث في علم التاريخ عند المسلمين*، مجلة الأقلام، السنة الأولي، شعبان 1384 ، ج 5، ص 22-41. [24-27.]

اتهام المحدثين لبعضهم إما بالجهل أو بالتحيّز المذهبي أو بقضاء مآرب شخصيّة. كما لا يغيب عن إدراكنا أن المصنّف قد يكون منجذبا بوعي أو بغير وعي، نحو من هو بصدد الترجمة له قاصدا تبرير سيرته وإثباتها أو لرفع مظلمة يعتقد أنها قد سُلّطت عليه، وبالتالي فسيكون تأليفه إنتقائيّا بالضرورة.[1] لذلك، فمن بين الأهداف التي يمكن أن يرسمها الباحث المعاصر عند استغلاله لهذه المصنفات، هو ضرورة الكشف عن هذه الكتابات والفرضيّات اللاواعية، وإبراز نتائج الضغوطات الموضوعيّة المهيمنة على سيرة الشخص المترجم له من ناحية، وعلى صاحب التصنيف من ناحية ثانية، ومدى تماهي أو انزياح كل منهما مع تطوّر هذه الضوابط التي تتحدّد بمقتضاها موازين القوى.[2]

إن هذا الصنف من الكتب قد سبق التدوين الحولي، بل يمكن أن نقول أن هذا الأخير قد تولّد منها، نظرا للارتباط الوثيق للمغازي والسير بعلم الحديث الذي جُمِعت مواده قصد نقد الأحاديث وتمحيصها.[3] ورغم أن روّاد المغازي هم أصلا محدّثين، فقد سعى البعض إلى تجاوز الاعتبارات الروحية والتشريعيّة كي يبحث في الأحداث التاريخية التي واكبت حياة الرسول والصحابة دون التخلي عن سلسلة الإسناد.

لذلك لا يمكننا دراسة السيرة النبوية والأحداث التاريخية الأولى في صدر الإسلام إلا بالقيام بدراسات وقراءات موازية لمحتوى المغازي والسير، والسعي إلى اكتشاف كيفيّة وضعها، ومقارنتها ببعضها البعض، مع النظر في ما يمكن الاستفادة منه ضمن أشعار فترة صدر الإسلام،[4] لعلّها تنير لنا بعض الأحداث والوقائع التي ضخّمتها وحاكتها كتب السيرة، مع اعتبار أن القرآن الكريم هو المصدر الأساسي لدراسة فترة البعثة المحمدية إلى وفاة الرسول.[5]

2. كتب علم معرفة الرجال :

ظهرت كتب "علم الرجال" بصفة موازية لعلوم الحديث، فهي فرع من

1 Knecht Robert J., La biographie et l'historien, In: *Cahiers de l'Association internationale des études françaises*, 2000, N°52, p 181.

2 Joana Jean, Les usages de la méthode biographique en sciences sociales, In: .94*Pôle Sud*, N°1, 1994, p,

3 هاملتون جب، *علم التاريخ*، ص 58.

4 أنظر: تيودور نولدكه، *تاريخ القرآن*، تعديل: فريديريش شفالي، نقله إلى العربية جورج تامر، كولونيا (المانيا) منشورات الجمل2008،ص405-409.[عنصر:الأشعاربوصفها مصدرا تاريخيّا.]

5 يشير هشام جعيط في كتابه الأخير باللغة الفرنسية، حياة محمد : **مسيرة الرسول بالمدينة ونصر الإسلام**' إلى ضرورة اتّباع هذه المنهجية في البحث التاريخي، والتي طبّقها بدقة متناهية، وخرج بعديد الاستنتاجات المنطقيّة وغير المسبوقة ضمن الدراسات المحمدية، والتي يصعب مخالفتها. أنظر Hichem Djaït,*La vie de Muhammad :Le parcours du Prophète à Médine et le triomphe de l'islam*, CERES,Tunis,2012 pp 130.,188. 198

فروعه،[1] وقد دعت الحاجة إليه ضرورة النظر في عدالة الروّاة ودرجة ضبطهم أو للطعن في رواياتهم، أي «البحث عن رجال الإسناد فيما يشينهم أو يزكّيهم»،[2] وهو ما انبثقت عنه كتب معرفة الصحابة وكتب الطبقات وكتب علم الجرح والتعديل،[3] بغية التأكّد من سلسلة الروّاة وبلدانهم وتنقلاتهم وشيوخهم... والتمييز بين الأحاديث[4]... التي روى بها كل المحدّثين والمصنّفين لأحاديث الرسول وسيرته، « *لحلّ الإشكالات التي نجمت عن عدم تدوين السنّة*[5] *في العصر الإسلامي الأوّل، وقد اتخذها رجال الفقه الإسلامي كمصدر ثانٍ للشريعة الإسلاميّة*.»[6] وأوّل من اعتنى بالكتابة في هذا المجال « شعبة بن الحجاج(160هـ)، ثم تبعه يحيى بن سعيد القطّان (198هـ).»[7] لكن هذه المدوّنات الأولى لم تصلنا. ولا يمكن الاعتماد إلا على"كتاب التاريخ الكبير" لإسماعيل البخاري(256هـ) كأوّل مصنّف تمّ حفظه،[8] وقد وضعه البخاري من أجل تحقيق أسماء الروّاة الذين ذكرهم في "صحيحه".

وقد انتقلت طريقة وضع الكتب التاريخية بالاعتماد على الإسناد، إلى المؤرّخين، ولعلّ ابرز هذه النماذج يتجلى لدى المحدّث والفقيه والمؤرّخ،

---

1 إبراهيم فوزي، *تدوين السنة*، منشورات رياض الريس، لندن، ط 2، 1995، ص 145-169.

2 مر، ن، ص 147.

3 أكرم ضياء العمري، *بحوث في تاريخ السنّة المشرّفة*، [ص 91-99].

4 مثل الأحاديث الصحيحة والموضوعة والضعيفة والحسنة والمتّصلة والمرسلة والمسندة والموقوفة والمقطوعة... والحديث الموصول عندما يكون الراوي صحابيّا، والمرسل عندما يكون الراوي تابعيّا، أما الموقوف فهو قول الصحابي وفعله، والمقطوع يعود للتابعي وفعله. أنظر: كتاب *علوم الحديث* لابن الصلاح. وأنظر السخاوي، *فتح المغيث بشرح ألفيّة الحديث*، دراسة وتحقيق عبد الكريم بن عبد الله الخضير ومحمد بن عبد الله بن فُهيد آل فُهيد، مكتبة دار المناهج، الرياض، 1426ه، (2005م)، 4 أجزاء + جزء 5 للفهارس، [ج 1 و 2.]. وأنظر مقدمة تحقيق كتاب *الكامل في ضعفاء الرجال* لابن عُديّ الجرجاني، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وآخران، بيروت، دار الكتب العلميّة، (4 أجزاء)، 1/8-12. وأنظر: إبراهيم فوزي، *تدوين السنة*، ص 171-186.

5 حول إشكاليّة تحديد بداية تدوين الحديث النبوي، نلاحظ عدة اختلافات عميقة بين الباحثين، فهنالك من يرى إن بداية تدوين السنة كان متأخرا (منتصف القرن الثالث) وهنالك من يعتقد إنها قد بدأت قبل ذلك بكثير (بداية القرن الثاني). أنظر في هذا الصدد: إبراهيم بيضون، *مسائل المنهج في الكتابة التاريخية العربية*، دار المؤرّخ العربي، بيروت، 1995، ص14-16. وهاملتون جب، *علم التاريخ*، ص60. ومحمد فتحي عثمان، *المدخل إلى التاريخ الإسلامي*، بيروت، دار النفائس، ط 2، 1992، ص 119. وصالح أحمد العليّ، التدوين وظهور الكتب المصنّفة في العهود الإسلامية الأولى، *مجلة المجمع العلمي العراقي*، مج 31، 1980، ص 03-46. وأنظر خاصة: أيمن فؤاد سيّد، *الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات*، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1997، 1/73-76. وإبراهيم فوزي، *تدوين السنة*، ص 49-64.

6 إبراهيم فوزي، *تدوين السنة*، ص 146.

7 حاجّي خليفة، *كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون*، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د. ت. ص 582.

8 طبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، 1360ه/1941م، 05 أجزاء.

الطبري(309هـ) في كتابه "تاريخ الرسل والملوك".[1]

لقد شمل التدوين في علم الرجال مختلف أصناف الروّاة بداية من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، إلى الثقات والضعفاء والمدلسين، وأصبح ينقسم بدوره إلى عدّة فروع من بينها "علم الثقات والضعفاء من رواة الحديث".[2]

وتتوزّع المصنّفات في هذا المجال على أربعة أصناف كبرى[3] وهي :

- مصنفات يتداخل فيها معياران: تفاضلي ديني، وفي نفس الوقت تسلسلي زمني؛ فتخضع لتقييمات ذاتية عند إدراج المترجم له ضمن طبقة دون أخرى.
- مصنفات تخضع لمعيار القرابة الدموية بالنبيّ وبرهطه ثم بعشيرته وبقبيلته.
- مصنفات اعتمدت الترتيب الزمني للطبقات بتفاوت في المدة الزمنية لكل طبقة بين 10 و50 سنة حسب الأجيال المتعاقبة وحسب مفهوم المصنف لكل جيل.
- مصنفات اعتمدت أساسا الترتيب على حروف المعجم.

وإضافة إلى هذه الأصناف الأربعة الكبرى، يمكن أن نجد مصنفات تمزج بين الترتيب الزمني لمدة الطبقة، وداخل كل طبقة يتمّ اعتماد الترتيب الألفبائي.

أ. المصنّفات في طبقات الصحابة : وُضِعت أصلا لتبيان درجة الصُّحبة من بين المهاجرين والأنصار.[4] ومن أهم المؤلفات في هذا المجال نذكر : كتاب الطبقات الكبير، لابن سعد (ت: 230هـ/845م)[5]. وكتاب : طبقات خليفة بن خيّاط (ت:240هـ/854م)[6] ويعتبر هذان الكتابان من بين الكتب المتداولة

---

1 تم رصد رواة الطبري ضمن كل كتبه التي وصلت إلينا ضمن كتاب حديث من تأليف أكرم بن محمد زيادة الفالوجي الأثري، "*معجم شيوخ الطبري*"، الدار الأثرية-دار ابن عقان، عمّان-القاهرة، 2005، 828 ص.

2 عرّفه حاجي خليفة في كشف الظنون قائلا : « *وهو من أجلّ نوع وأفخمه من أنواع علم أسماء الرجال، فإنه المرقاة إلى معرفة صحّة الحديث وسقمه، وإلى الاحتياط في أمور الدين وتمييز مواقع الغلط والخطأ... وللحفاظ فيه تصانيف كثيرة.*» ويضيف في شرحه لعلم الجرح والتعديل: « *هو علم يبحث فيه عن جرح الروّاة وتعديلهم بألفاظ مخصوصة وعن مراتب تلك الألفاظ. وهذا العلم من فروع علم رجال الأحاديث... وكما جاز الجرح في الشهود، جاز في الرواة.*» 582/1.

3 Ibrahim HAFSI, Recherches sur le genre « □*abaqā*t » dans la littérature arabe, in : *Arabica*, Tome XXIII, 1976, p 235-236.

4 أنظر حول اختلافات علماء المسلمين لمفهوم الصحبة والصحابة ودرجات التابعين : عدنان عبد الرحمان الدوري، أسماء التابعين ومن بعدهم (للدارقطني)، *مجلة المجمع العلمي العراقي*، مج 32، ج 1-2، 1981، ص 403-405.

5 يُعدّ هذا التأليف من أقدم المصادر التي وصلتنا أنظر : أكرم ضياء العمري، *بحوث في تاريخ السنة المشرّفة*، ص 83-87. يتناول السيرة والمغازي في جزئين، ثم يتناول ابن سعد توزيعا للصحابة حسب المراتب اعتمد فيه على معيار السابقة في الإسلام. أنظر دراسة :

Ibrahim HAFSI, Recherches ..., *Arabica*, Tome XXIII, 1976, p 243.

6 تحقيق أكرم ضياء العمري، تقديم أحمد صالح العليّ، بغداد، مطبعة العاني، 1967. كان خليفة بن خيّاط معاديا للمعتزلة، « *كما عانى الكثير من الحسد بسبب سعة علمه وثقته*»، وخلافا لكاتبه في

والمستعملة بغزارة في البحث التاريخي. غير إننا سنشير هنا إلى بعض الكتب الأخرى المغمورة والتي لا يتم إستغلالها إلا ضمن الدراسات ذات الطابع الفقهي والديني عموما. ومن أهم هذه الكتب حسب رأي أذكر :

- طبقات مسلم بن الحجّاج النيْسابوري،[1] (ت: 261هـ/874م): يتميّز بخاصيّة جديدة في ذلك العصر تتمثّل في وضع تراجم الروّاة على أساس التسلسل الزمني، فهو أوّل من قام بها في مثل هذه الكتب، فوزّع الصحابة إلى صنفين : أولائك الذين لازموا النبيّ وعاشروه من قرب، أما الصنف الثاني فهم الذين لم يروه ولم يكن لهم به اتصال مباشر، ومن مزاياه أنه أصبح مصدرا لضبط أسماء كثير من الروّاة وأنسابهم، وتصويب بعض أوهام البخاري في كتابه التاريخ الكبير، كما ميّز مسلم بين الصحابيّ والتابعي وحدّد بلدانهم.[2]
- الطبقات في الأسماء المفردة من أسماء العلماء وأصحاب الحديث،[3] لأبي بكر محمد بن هارون بن روْح البرديجي،(301هـ/913م): يعتبر البرديجي من كبار محدثي عصره، أثنى عليه العديد، فوثقوه، من بينهم الدارقطني والخطيب البغدادي وابن عساكر والذهبي.[4] وهو الأوّل من بين المصنفين الذين أفردوا للصحابة بهذه الطريقة في كتاب واحد[5] تسهيلا للبحث والتنقيب في أسماء الصحابة التي قسّمها على خمس طبقات. والإسم المفرد هو من لا يوجد له نظير من الأسماء ضمن موضوع التصنيف. فالمترجم له،

التاريخ، حيث كان دقيقا في الإسناد، نراه أكثر تساهلا في الطبقات الذي وضعه أصلا لعلم الرجال، « *فيكشف فيه عن علم واسع بالأنساب، ولكنه يضيف إليها الأخبار.»* مصطفى شاكر، *التاريخ العربي والمؤرخون*، 234/1-236. وتقدم لنا طبقات خليفة حوالي 3375 ترجمة لرجال ونساء من الصحابة والتابعين، وضعها على أساس القرابة العائلية من النبيّ الذي يبدأ بسيرته كي ينتقل مباشرة إلى عمه العباس جدّ خلفاء الدولة العباسية، ثم يصل إلى بقية أفراد العائلة الهاشمية، =مؤصّلا بذلك طريقة عمر بن الخطّاب عند وضعه لديوان العطاء. Ibrahim HAFSI, Recherches ..., *Arabica*, Tome XXIII, 1976, p 247.

ويفيدنا أكرم ضياء العمري بنتيجة هامة استخرجها من دراسة الكتاب تتمثل في حفظ المصنّف لعديد الروايات التي دُوّنت سابقا لكنها فُقِدت. وقد اعتمد عليه كل من أتى بعده وحتى من معاصريه مثل ابن سعد في الطبقات الكبرى، نظرا لغزارة المادة التي يقدمها خليفة *طبقات خليفة*، ص (30م) من مقدمة المحقق. وهي معلومات ثرية تمكننا من استخراج عديد المعطيات التي ظلّت جانبية لم يحسن استغلالها، وبالتالي فإنها تطرح عدّة تساؤلات أخرى وتفتح آفاقا جديدة في البحث، مثل أهميّة المدينة لدى القبائل العربية وكيفيّة تأقلمها مع المحيط العمراني الجديد، أو دور الرحلة لدى المحدثين والروّاة والأخباريين، وما هي الأبعاد الجغرافيّة ومراكز طلب العلم في المجال العربي الإسلامي خلال القرن الثاني للهجرة...

1 تقديم وتعليق أبو عبيدة مشهور بن حسن بن محمود بن سلمان، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، 1991، جزآن وأنظر: أكرم ضياء العمري، *بحوث في تاريخ السنة المشرّفة* ص 87-88

2 المهندس أسعد سالم تيم، *علم طبقات المحدثين : أهميته وفوائده*، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، 1994، ص 159.

3 تحقيق سكينة الشهابي، دار طلاس، دمشق، 1987، 167 ص.

4 *طبقات الأسماء المفردة من الصحابة والتابعين وأصحاب الحديث*، تحقيق سكينة الشهابي، دمشق، دار طلاس للنشر،1987، ص 9.

5 مصطفى شاكر، *التاريخ العربي والمؤرخون*، 231/1.

هو فرد في طبقته، ولا نظير له في غيرها من الطبقات.[1] ويعتقد إبراهيم حفصي في دراسته أن المصنّف قد عبّر بهذا الكتاب عن مدى إنشغال محدّثي العصر بإمكانيّة تداخل أسماء الروّاة، فكان من الضروري غربلتها والتركيز على بعض الأشخاص الضامنة لمصداقية المتن.[2] وهذه الطريقة لم تلق الصدى المطلوب بعد البرديجي، لأننا نلاحظ تضاعف عدد الصحابة عشرات المرّات بين القرن الثالث والثامن للهجرة، وما محاولة المصنّف في هذا الكتاب سوى تعبيرا عن إرادة إقصاء لبعض الروّاة الذين اعتبرهم البعض من الضعفاء والمدلسين، ونظر إليهم الآخرون كثقات. وسيتم تثبيت هذا التوجه في الانتقاء والإقصاء بظهور عديد كتب الجرح والتعديل خلال نفس الفترة الزمنيّة.

- معجم الصحابة[3] لابن البغوي أبو القاسم عبد الله بن محمد (317هـ) :

أتّهم البغوي بالتقصير والكذب وبسرقة الأحاديث وبوضع بعضها.[4] لكن الذهبي دافع عنه في "سير أعلام النبلاء".[5] ورغم التجريح والهنات التي أخذها البعض من المصنفين على ابن البغوي، إلاّ أن العديد منهم قد استفاد من كتابه هذا، من بينهم ابن عبد البرّ في "الاستيعاب"، والعسقلاني في "الإصابة" وفي "فتح الباري".[6]

ب. المصنفات في الثقات :

- كتاب "معرفة الثقات"، لأبي الحسن أحمد بن عبد الله العجلي الكوفي (261هـ) نزيل طرابلس الغرب. (مع زيادات ابن حجر العسقلاني).[7]
- كتاب "الثقات" لابن حبّان البَستي(354هـ/965م).

ت. المصنفات في الضعفاء والمتروكين:

لقد اعتمد المصنفون في هذا الباب نفس المنهجية المتّبعة عند الكتابة في "الثقات"، فأفردوا وجمعوا بين مختلف الصحاح والمجاميع والمسانيد. وكثر

---

1 *طبقات الأسماء المفردة من الصحابة*، مقدمة المحقق، ص 14.

2 Ibrahim HAFSI, Recherches… *Arabica*, Tome XXIII, 1976, p 250.

3 تحقيق محمد الأمين بن محمد الجكني، مكتبة دار البيان، الكويت، 2000، 5 أجزاء. وأنظر : أكرم ضياء العمري، *بحوث*، ص 73.

4 قال فيه ابن عُديّ : *«كان صاحب حديث، وكان ورّاقا من ابتداء أمره، يُورّق على جدّه، وعمّه وغيرهما، وكان يبيع أصل نفسه في كلّ وقت... ووافيت العراق سنة سبع وتسعين ومائتين، والناس أهل العلم والمشايخ معهم، مجتمعين على ضعفه، وكانوا زاهدين من حضور مجلسه... وتكلم قوم فيه عند عبد الحميد الورّاق ونسبوه إلى الكذب... وكان بذيء اللسان، يتكلم في الثقات.»* ابن عدي الجَرجَاني، *الكامل في ضعفاء الرجال*، دار الفكر، بيروت، 1984،(7 أجزاء)، 1578/4-1579.

5 *«قد أسرف ابن عُديّ، وبالغ، ولم يقدر أن يخرّج له حديثا غلط فيه، سوى حديثين، وهذا مما يقضي له بالحفظ والإتقان، لأنه روى أزيد من مائة ألف حديث، لم يَهِم في شيء منها.»* *معجم الصحابة* لابن البغوي، مكتبة دار البيان، الكويت، 2000، 5 أجزاء، 30/1-31.

6 مص، ن، 35/1-36

7 صدر الكتاب بتحقيق عبد العليم عبد العظيم البستوي عن مطبعة المدني بالقاهرة في جزئين، دون تاريخ للنشر، لكن مقدمة المحقق تشير إلى سنة 1984، وقد قام بنقد وتصحيح طبعة دار الكتب العلمية ببيروت التي صدرت تحت عنوان "تاريخ الثقات" سنة 1984.

التنقيب عن هؤلاء منذ الفتنة الكبرى.[1] وبالتالي فإن عمليّات التنقية والتصنيف والقبول والرفض قد بدأت منذ العقود الأولى للتدوين فظهرت عديد الكتب في هذا المجال. والتي يفوق عددها 32 تأليفا،[2] نذكر من بينها :

- مولفات يحيى بن معين(233هـ)،[3] وهي عبارة عن مجموعة من المرويات التي تختلف بين هذا وذاك من الروّاة. لكن أهل السنّة والجماعة اعتبروه العُمدة في رواية الحديث والمُزكّي لبقية الروّاة، والذي لا يمكن التشكيك في شخصه وفي أحكامه، إلى أن جعله بعضهم من المقربين من الذات الإلاهية في الجنة!![4] والجدير بالتذكير أن ابن معين معاصر وصديق لأحمد بن حنبل.
- كتاب "الضعفاء الصغير" وكتاب "الضعفاء" للبخاري.(255هـ).
- "الشجرة في أحوال الرجال" للجوزجاني أبو إسحاق السعدي نزيل دمشق(259هـ).

حدّث عن الجوزجاني العديد ممن أتى بعده مثل أبي داود السجستاني، والترمذي، والنسائي، والطبري، وآخرين. اشتهر هذا الكتاب، أيضا باسم "الضعفاء"، وذلك لأن الجوزجاني ألفه لبيان حال من لا ينبغي الرواية عنه حسب اعتقاده، إما "لضعفه أو بدعته أو لعدم صدقه وأمانته في الرواية." ولم يُرتِّب كتابه ترتيبًا مُعيّنا، وإنما راعى في تصنيفه الفِرَق والمذاهب : " أهل البدع والأهواء". كما نسبه بعضهم إلى التحامل على أهل الكوفة.

- الضعفاء والمتروكين لأحمد بن شعيب النسائي(303هـ). وقد اعتبره البعض من المتشددين في الحكم على الرجال.
- "الضعفاء الكبير" لمحمد بن عمر العقيلي(322هـ). حفظ لنا هذا الكتاب آراء علماء الحديث في بعض الروّاة، منبّها إلى الأحاديث التي "أخطأ فيها بعضهم"، والتي كانت سببًا في تجريحهم ودحض مروياتهم. وليس كل

---

1 ذكره مسلم في صحيحه والبغدادي في "الكفاية في علم الرواية" نقلا عن: عدنان عبد الرحمان الدوري، أسماء التابعين ومن بعدهم، *مجلة المجمع العلمي العراقي*، مج 32،ج 1-2،1981،ص 402.

2 الدارقطني، *الضعفاء والمتروكين*، تحقيق موفق بن عبد الله بن عبد القادر، الرياض، مكتبة المعارف، 1984، ص 13-16.

3 « يحيى بن معين بن عون بن زياد (233ه/848م)، المري بالولاء، البغدادي، أبو زكريا : من أئمة الحديث ومؤرخي رجاله. نعته الذهبي بسيّد الحفاظ. وقال العسقلاني : إمام الجرح والتعديل. وقال ابن حنبل : أعلمنا بالرجال. ومن كلامه : كتبت بيدي ألف ألف حديث. له "التاريخ والعلل" في الرجال، رواية أبي الفضل العباس بن محمد بن حاتم الدوري عنه. و"معرفة الرجال". أصله من سرخس. ومولده بقرية " نقيا " قرب الانبار. وكان أبوه على خراج الري، فخلف له ثروة كبيرة، فأنفقها في طلب الحديث. وعاش ببغداد. وتوفي بالمدينة حاجّا، وصلى عليه أميرها.» الزركلي، *الأعلام*، بيروت، 1969، الطبعة 3، 218/9-219. وأنظر مقدمة تحقيق كتاب : "*الموسوعة أقوال يحيى بن معين في الجرح والتعديل*"، جمعها وحققها بشار عواد معروف، دار الغرب الاسلامي، 2009، 5 اجزاء. [10/1-32.]

4 قال عنه أحدهم : « *رأيت يحيى بن معين في النوم فقلت : ما فعل الله بك؟ قال أعطاني وحباني وزوّجني ثلاث مئة حوراء، ومهّد لي بين المصراعين... وأدخلني عليه مرتين.*» *موسوعة أقوال يحيى بن معين في الجرح والتعديل*"، 31/1-32.

الرواة الذين ذكرهم العقيلي قد تمّ الاتفاق على تضعيفهم، بل أن العديد منهم قد تمّ الاختلاف حولهم، ومنهم من اعتبرهم الذهبي في "ميزان الاعتدال"، من الثقات.

- "المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين" : لمحمد بن حبّان البستي، (ت: 354ه). يشير محقق الكتاب إلى أن ابن حبّان قد « *وقع في صراع مع الأحناف، وكاد لهم وكادوا له في كل مكان تواجدوا به. وهذا هو التعليل الوحيد لتحامله على أبى حنيفة...*»[1]
- الكامل في ضعفاء الرجال[2] لابن عُديّ الجرجاني(365هـ).
- "الضعفاء والمتروكين" للدارقطني علي بن عمر بن أحمد(385هـ).

ث. المصنفات في المدلسين :

إن الحديث النبوي خاضع لمعطيات تظل تاريخيّة بالأساس، فالمفاهيم الأوّليّة التي حدّدها الجدال وأفرزها الصراع المادّي والفكري بين المسلمين قد سمح بظهور الأحاديث المنسوبة للرسول ولأبي بكر وعمر؛ إحداها تمجّد العرب وقريش، وأخرى تمجّد الفرس وثالثة تمجّد المغاربة[3] وأخرى تحطّ من شأن هذه المجموعة أو غيرها. فتراكم الأحاديث وتضخّم عددها عبر سنوات التجميع والتدوين أدّى إلى تنافس المحدثين والرواة والمدوّنين. كما ضعّف الفقهاء بعضهم البعض مثل الدارقطني[4] الذي استخرج في كتابه"الاستدراكات والتتبع"، حوالي مائتي حديث اعتبرها ضعيفة من صحيحي البخاري ومسلم.[5] ويشير البيروني إلى أن أحد المحدثين، بعد أن وضع الآلاف من الأحاديث في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (136-158ه/754-775م) افتضح أمره «... *فلمّا أيقن أنه مقتول، قال : أما والله لئن قتلتموني لقد وضعت أربعة*

---

1 *المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين*، تحقيق محمود إبراهيم زايد، بيروت، دار المعرفة، 1992، 3 أجزاء، 01/الصفحة (ه) من مقدمة التحقيق.

2 أنظر : زهير عثمان علي نور، *ابن عُدي ومنهجه في كتاب الكامل في ضعفاء الرجال*، مكتبة الرشد، الرياض، 1997، جزآن.

3 أنظر خاصة : أبو العرب، (ت : 333ه)، *طبقات علماء إفريقيّة وتونس*، تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي، تونس، الدار التونسيّة للنشر،1968، ص 43-53. [فصل : ما جاء من الفضائل في إفريقيّة]. كما يشير ابن ناجي في معالم الإيمان إلى عديد الأحاديث المنسوبة للرسول ويعلّق عليها قائلا : «... *وسمعت شيخنا أبا الفضل، أبا القاسم بن أحمد البرزلي* (ت: 821ه) *قول عن شيخه وشيخنا أبي عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمّي : أنه يغلب على الظن أن هذه الأحاديث موضوعة، ... ويدلك على هذا أن فيها رونق الأحاديث الموضوعة.*» [*معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان*،ج 1، (تصحيح وتعليق إبراهيم شبّوح)، صنّفه الدبّاغ أبو زيد عبد الرحمان الأسيدي، (ت : 696ه)، أكمله وعلّق عليه بن ناجي، تونس، المكتبة العتيقة، ط 2، 1993، 6/1.] كما يشير إبراهيم حركات لحديث «*لم يتورّع عنه البعض لإظهار أفضليّة هذه المدينة أو تلك من مدن المغرب الإسلامي، بل إن إفريقيّة الأمازيغيّة قيل عنها : « ينقطع الجهاد من البلدان كلها فلا يبقى إلا في موضع في المغرب يُقال له إفريقيّة.*»، *المجتمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط*، الدار البيضاء، منشورات إفريقيا-الشرق، 1998. ص 29.

4 الدارقطني : (ت: 385ه)، أبو الحسن علي بن عمر البغدادي الشافعي، انتقل إلى مصر وساعد كافور الإخشيدي على تأليف مسند كان يصنّفه. كارل بروكلمان *تاريخ الأدب العربي*،3/210-212.

5 مر. ن.، ص 212.

آلاف حديث، أحرّم فيها الحلال وأحلّ بها الحرام، ولقد فطّرتكم في يوم صومكم وصوّمتكم في يوم فِطركم...»[1] أي أن الفقهاء والعلماء كانوا على وعي تام بإمكانيّة تدليس الأحاديث والكذب على الرسول، لذلك عمل كل منهم حسب اعتقاداته ومذهبه على استقصاء سلسلة الأسانيد خاصّة، لكن نظرتهم إلى متن الحديث لم تكن بنفس المستوى النقدي باعتبار أن نقد المتن لا يجوز البحث فيه متى صحّ الإسناد.

وقد أشار عدد من المؤرخين والفقهاء[2] في مصنفاتهم إلى مجموعة كبيرة ممّن اعتبروهم من واضعي الحديث، ويُقال أن عددهم يفوق 350 كذّابا،[3] جلّهم اتهموا بالتشيّع أو بالزندقة، أو بالاعتزال أو بالانتماء إلى السبئية.[4] فالكلّ يتّهم الكلّ. «*لذلك يجب التدقيق في أخبار هذه المرحلة التي لم تخْلُ أخبارها من تعاطف مع هذا الاتجاه السياسي أو ذاك.*»[5] فنلاحظ بالتالي أن هذه المصنفات تفتقر لكل حسّ تاريخيّ موضوعي، وتخضع لتوجهات مذهبية واضحة، فوجب التعامل مع محتوياتها بكلّ حذر، والعمل على استغلالها بصفة تجعلنا نفرّق بين الكتابة الإيمانيّة والمعرفة التاريخيّة.

---

1 البيروني، *الآثار الباقية عن القرون الخالية*، (وضع حواشيه خليل عمران المنصور)، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط 1، 2000.ص 68.

2 أنظر في هذا الصدد : خالد كبير علال، *مدرسة الكذابين في رواية التاريخ الإسلامي وتدوينه*، الجزائر، دار البلاغ، 2003، 139 ص.

3 من بينهم : عمرو بن عبيد(144هـ)، ومحمد بن السائب الكلبي(146هـ)، ومحمد بن إسحاق (151هـ)، وسيف بن عمر التميمي (180هـ)، وهشام بن محمد بن السائب الكلبي (204هـ)، والواقدي (208هـ)، وأبو الهذيل العلاف(235هـ)، والجاحظ (255هـ)، مر، ن، ص 10. وابن النديم(380هـ)، (يقول عنه ابن حجر العسقلاني: «عمرو بن بحر الجاحظ صاحب التصانيف ... قال ثعلب ليس بثقة ولا مأمون. قلت : وكان من أئمة البدع... فسبحان من أضله على علم... وقال إسماعيل بن محمد الصفار سمعت أبا العيناء يقول أنا والجاحظ وضعنا حديث فدك وأدخلناه على الشيوخ ببغداد فقبلوه إلا بن شيبة العلوي فإنه أباه وقال هذا كذب... وذكر أبو الفرج الأصبهاني أنه كان يرمى بالزندقة... قال بن خشبة في اختلال الحديث... ثم نصير إلى الجاحظ ... فنجده مرة يحتج للعثمانية على الرافضة ومرة للزندقة على أهل السنة ومرة يفضل عليا ومرة يؤخره ... وقال بن حزم في الملل والنحل : كان أحد المجان الضلال، غلب عليه الهزل... وقال ثعلب كان كذابا على الله وعلى رسوله وعلى الناس.» *لسان الميزان*، تحقيق عبد الفتاح أبو غدّة، دار البشائر الإسلاميّة، بيروت، 2002، 189/6-190 ترجمة عدد (5780.) والتوحيدي (414هـ). (يقول عنه ابن حجر العسقلاني: « أبو حيان التوحيدي صاحب التصانيف ... نفاه الوزير المهلبي لسوء عقيدته وكان يتفلسف ... كان أبو حيان كذاب قليل الدين والورع مجاهرا بالبهت، تعرض لأمور جسام من القدح في الشريعة والقول بالتعطيل، وقال ابن الجوزي كان زنديقا. قلت بقي الى حدود الأربع مائة ببلاد فارس وكان صاحب زندقة وانحلال.» *لسان الميزان*، 55/9، ترجمة عدد (8825).

4 أنظر في هذا الشأن : عزيز رشيد محمد الدّايني، *أسس الحكم على الرجال حتى نهاية القرن الثالث الهجري*، (تدقيق ومراجعة بشار عوّاد معروف)، بيروت، دار الكتب العلمية، 2006، 200 ص.

5 إبراهيم بيضون، *مسائل المنهج في الكتابة التاريخية العربية*، بيروت، دار المؤرّخ العربي، 1995. ص 22. وأنظر : أيمن فؤاد سيّد، *الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات*، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1997، جزآن. ص 75.

3. دور كتب الأنساب :

لقد ساهم كُتّاب الأنساب في حتميّة انبلاج كتب الطبقات، إذ كان لعلم لأنساب أهميّة لدى العرب منذ ما قبل الإسلام حفاظا على أصالة وتماسك القبيلة كوحدة اجتماعية يفتخر الأفراد بالانتماء إليها.[1] وقد تمّ تدعيم هذا التوجّه منذ عهد الرسول الذي كان مع أبي بكر الصديق أكثر الناس معرفة بالأنساب،[2] لأن هذه المعرفة تنزّل الناس منازلهم، ثم أن قسما من أعمال الشرع يحتاج تطبيقها إلى معرفة الأنساب، مثل معرفة نسب النبي كفرض على المسلمين، ومعرفة عدم جواز الخلافة إلا للقريشيّ الأصيل، وضرورة التثبت من الأرحام المحرّمة لإبرام عقود النكاح وتثبيت المواريث.[3] بل يذهب شاكر مصطفى أبعد من ذلك كي يؤكّد على أن أوّل خطّ تاريخي كُتب في الإسلام، إنما كان في النسب على يد ثلاثة أنفار بدعوة من عمر بن الخطّاب الذي عهد إليهم بوضع سجلات الأنساب للدواوين التي أنشأها.[4]

فمنذ أواخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث للهجرة، ساهمت هذه الكتب في بلورة الكتابة التاريخية كنسيج أدبي ما فتئ يرنو نحو الاستقلالية.[5]

ونتيجة للانتشار الإسلامي خارج الجزيرة العربية ونظرا للإشكاليات الجديدة المطروحة، السياسية (الخلافة) والاقتصادية (أراضي السواد والغنائم) والاجتماعية (الشعوبيّة) التي واجهتها الدولة[6]، ظهرت فئة جديدة من بين الإخباريين وهم النسّابة[7] الذين وضعوا سلالات القبائل والأفراد منذ العهد الأموي. وقد علمنا من خلال كتب الفهارس والتراجم أن العديد من النسّابين الأوائل قد كتبوا في مجال كُتب الطبقات مثل كتاب "طبقات أهل العلم

---

1 أنظر جان سوفاجيي و كلود كاهين، *مصادر دراسة التاريخ الإسلامي*، حيث يقول الكاتب :
«... ولم يكن كل فرد يحفظ نسبه فحسب، وإنما كان يحفظ أيضا أمجاد أجداده القتالية التي تجلّت من خلال الحروب القبلية. وفي ظل البناء الاجتماعي قبل الإسلام لم يكن الفرد يُعتبر سوى عضو في جماعة – عشيرة أو قبيلة – لها شرفها وشهرتها.» ص 50.

2 أنظر : محمد عبد الحي محمد شعبان، *صدر الإسلام والدولة الأمويّة*، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، 1987. حيث يقول : « كان نسابة خبيرا، وهي معرفة ستكون مفيدة سياسيا في فترة الردّة حين كانت معرفة الصلات القبلية المتشابكة أمرا حيويّا.» ص 28.

3 أنظر مقدمة : كتاب *طبقات خليفة بن خيّاط*، ص 34م.

4 وهؤلاء الأشخاص هم : جبير بن مطعم القرشي وعقيل بن أبي طالب (شقيق علي) ومخرمة بن نوفل الزهري القرشي، فأصبحت سجلاتهم أساسا لكتب النسب مصطفى شاكر، *التاريخ العربي*، 190/1. وأنظر : الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2001، 275/3.

5 يشير جان سوفاجي إلى أن علم التاريخ قد استقلّ عن التراجم والأنساب والحوليات، «*إلا أنه ظلّ دائما ينزع إلى اصوله الأولى ويحمل طابعها. حتى أن بعض الكتب التي تسمى "كتب تاريخ"، لا تخرج عن كونها مجموعات من تراجم المحدثين تم اختيارهم لما رووا من أحاديث.*» *مصادر دراسة التاريخ الإسلامي*، ص 56. وانظر : إبراهيم بيضون، *مسائل المنهج*، ص 25.

6 مر، ن، ص 151. و مصطفى شاكر، *التاريخ العربي والمؤرخون*، 65/1-68.

7 محمد بن السائب الكلبي : (146هـ) وابنه هشام (204هـ)، وأبو اليقظان (190هـ) الذي اعتمد عليه خليفة بن خيّاط (240هـ) في طبقاته، والبلاذريّ (297هـ) في أنساب الأشراف. أنظر : *كتاب طبقات خليفة بن خيّاط*، ص 15م – 25م.

والجهل" للمعتزلي واصل بن عطاء الغزّال(وُلد سنة80هـ وتوفّي سنة181هـ)،[1] ثم كِتابيْ الهيثم بن عدّي(207هـ): "من روى عن النبيّ وأصحابه" و"طبقات الفقهاء والمحدثين".[2] وقد سبق له أن وضع كتابين في الأنساب بعنوان: "تاريخ الأشراف الكبير" وتاريخ "الأشراف الصغير"،[3] إضافة إلى مجموعة كبيرة أخرى من الكتب التي تنحو نفس منحى الطبقات.

لقد اهتمّت كتب الأنساب بتسجيل سنة وفاة الشخص المترجم له، وبنسبه لأبيه وأمه، ويعود ذكر النسب أحيانا إلى ما قبل الإسلام، كما يتمّ ذكر كنيته، ومسقط الرأس ومكان السّكن والمهنة التي تقلّدها وأحيانا عقيدته، وتنقلاته بين الأمصار. كما اعتمدت على الأشعار لاستخراج مناقب ومثالب القبائل والعشائر، لكنها مزجت كل ذلك بالأخبار والأحداث المتعلقة بالمترجم له.

ومن بين أهم المصنّفات في طبقات النسابين نذكر :

- ابن قتيبة (276هـ/889م)، المعارف.[4]
- أحمد بن يحيى البَلَاذُري(279هـ)، أنساب الأشراف.[5]

ويجدر بنا لفت نظر القارئ إلى ضرورة الاطلاع على الدراسات النقدية التي قام بها كلاّ من مصطفى شاكر ضمن الجزء الأوّل من كتابه التاريخ العربي والمؤرخون (ص 243-245)، وعبد الستار فرّاج ضمن الجزء الأوّل من كتاب أنساب الأشراف تحقيق محمد حميد الله (ص 14- 28) تحت عنوان : "قيمة البلاذري وكتاب أنساب الأشراف" ، حيث يستعرض خاصة مفهوم مصطلح "الأشراف" وطريقة المؤلف في تأليفه.[6]

كما يمكن الإشارة إلى كتاب بكر بن عبد الله أبو زيد، جمع ضمنه مؤلفه كل ما كُتب في الأنساب، مع دراسة مطوّلة هامة في الموضوع. وهو بعنوان: طبقات النسّابين، دار الرشد، الرياض، 1987، 289 ص.وقد تمّ تأليف ردّ على كتاب بكر بن عبد الله، وهو عبارة عن ملاحظات وتنبيهات على مواضع في كتاب "طبقات النسابين"، تحت عنوان : الإيضاح والتبيين للأوهام الواردة في كتاب "طبقات النسابين" ويليه مستدرك بعض ما فاته من النسابين، لكاتبه محمد بن عبد الله آل رشيد، صدر عن دار الحنان، دمشق 528 ص. وعن

---

1 ابن خلكان، *وفيات الأعيان*، تحقيق إحسان عبّاس، بيروت، دار صادر، 1994. 11/6.

2 ابن النديم، *الفهرست*، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996، ص 160.

3 مص، ن، نفس الصفحة.

4 أنظر مقال مصطفى جوّاد، المعارف، *مجلة المجمع العلمي العراقي*، مج 9، 1961، ص 433-459.[*المعارف*، تحقيق: ثروت عكاشة، دار الكتب المصريّة، القاهرة، 1960، 667 ص. ويعرفنا ابن قتيبة بكتابه وبالهدف من وضعه.]

5 تم تحقيقه عديد المرات على مراحل، [مصطفى شاكر، التاريخ العربي، 243/1-245.]. نذكر من بينها : تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، 1959 (الجزء الأوّل فقط). وتحقيق إحسان عباس، جمعية المستشرقين الألمانية، بيروت، 1979. و تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر، بيروت، 1996، 13 ج. وأنظر *صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلاميّة في مدريد*، مج 7-8، 1959-1960، ص 361-364.

6 *أنساب الأشراف*، تحقيق محمد حميد الله، (الجزء الأوّل) دار المعارف، القاهرة، 1959، **28/1**.

الدار العربية للموسوعات، بيروت،2004ط1، و2007، ط2، 384 ص.

4. كتب الطبقات :

سبق أن أشرنا إلى أن كتب الطبقات قد تزامن تدوينها مع ما كُتِب في المغازي والسير، وقد تجسّدت الفكرة انطلاقا من عمليّة التفاضل في صلب النخبة الأولى من الجماعة الإسلامية على أساس السابقة في الإسلام والبلاء فيه والدفاع عنه، وعلى درجة القرابة الدموية من الرسول ومن آل المطلب وبني هاشم ثم قريش...لا سيما بعد إقرار الخليفة عمر بن الخطّاب لديوان العطاء.[1]

إذا، انطلاقا من سيرة الرسول ومغازيه، ومن مشاركة أصحابه في بناء الدولة الإسلاميّة، ومن إرادة البحث في التأسيس لنموذج إسلامي متعالٍ، تشكّلت أولى الكتابات في الطبقات والتراجم، «*وكانت محتوياتها متباينة جدا تبعا لموضوع البحث والناحية التي يعالجها المؤلف منه*»،[2] وهي كمنهجية في الكتابة، تعتبر استنباطا عربيا إسلاميا بحتا ضمن المعارف الإنسانيّة.[3]

ومع انتصار الدعوة العباسية، كانت الحاجة ماسة لدى رجال الدولة ومنظّريها وفقهائها وعلمائها ومؤرّخيها ومعارضيها وخصومها لمعرفة الرجال الأوائل الذين ساهموا في نشر الإسلام وبناء الدولة، معرفة دقيقة تمكنهم من تأييد توجهاتهم، أو بالعكس من تفنيد المقولات السابقة لهم، خاصة تلك التي كانت برعاية رجال الدولة الأموية بداية من معاوية.[4] وزاد الإقبال على التأليف في علم الطبقات «*بالتزامن مع حاجة المذاهب والنحل الدينية المتنافسة إلى الاحتفاء بمآثر الصفوة من أجيال العلماء المنتسبين إليها*»[5] لا سيما خلال القرن الرابع للهجرة، حيث أصبحت قائمات الأشخاص المترجم لهم تخضع لمزيد من الفحص والتمحيص، وبرزت لأوّل مرّة كتب الطبقات الخاصّة بالأقاليم. وقد ساعد على تراكم هذه الكتابات التاريخية حدث هام تمثّل في تأسيس مركز لصناعة الورق بسمرقند ثم ببغداد منذ سنة 178 هـ.[6]

يمكن اعتبار أن كلّ كتب الطبقات هي كتب تراجم، وليس العكس صحيحا.

---

1 أنظر : الطبري، *تاريخ الأمم والملوك*، بيروت، دار صادر، 2003، ط 2، 2/661-662. (أحداث السنة 15 للهجرة).

2 فرانز روزنتال، *علم التاريخ عند المسلمين*، ترجمة صالح أحمد العلي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 2، 1983.ص 143.

3 مر، ن، ص 133-134.

4 أنظر في هذا الشأن حول البعض من مؤرّخي مدرسة الشام وعلاقتهم بالسلطة الأموية : عبيد بن شرية الجرهمي وعروة بن الزبير بن العوّام والزهري وعوانة بن الحكم الكلبي. مصطفى شاكر، *التاريخ العربي والمؤرخون*، 1/126-128.

5 لطفي عيسى، *كتاب السّير*، تونس، دار المعرفة، 2007، ص 31.

6 أنظر : هاملتون جبه *"علم التاريخ"*، ص 63. و*"دراسات في حضارة الإسلام"*، ص 151. وألكسندر ستيبتشفيتش،" *تاريخ الكتاب"*، ترجمة محمد م. الأرناؤوط، سلسلة عالم المعرفة، عدد 169، الكويت، 1993. 1/220. وأنظر كذلك : أيمن فؤاد سيّد، *"الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات"*، 1/147. و مصطفى شاكر، *التاريخ العربي والمؤرخون*، 1/69-72، وأسامة ناصر النقشبندي، الورق وصناعته في التاريخ العربي، *مجلة الذخائر*، ع 9، 2002، ص 33-36.

فالتمييز الجوهري بين كتب التراجم والطبقات هو اعتماد الأولى على الترتيب الألفبائي، في حين أن الثانية اعتمدت أساسا على الترتيب الطبقي. فبعض المصنفين الأوائل لم يستعملوا الطبقة كوحدة زمنية ثابتة، إذ كان لكل واحد منهم فهم للطبقة وغـايـة يريد تبليغها، فاستعملها البعض في معنى الجيل.[1] ويقدّم لنا السخاوي تلخيصا مهما لهذا الصنف من الكتابة التاريخية في مجال الطبقات، مقارنا بينها وبين الكتابة في التأريخ.[2]

فنستنتج إختلافا في هم كلمة "طبقة" من قبل من ألّف في الفكر الإسلامي من القدماء، وتبدو عموما إنها قد تم إستيعابها على أساس الترتيب والمفاضلة بالمقدرة والقيمة والأهليّة، ويبرز ذلك جليّا لدى الجاحظ في "البيان والتبيين"[3] وفي فصل من صدر رسالته في طبقات المغنّين.[4]

لقد ظهرت الكتابة في صنف الطبقات وشاعت لدى الفقهاء والمحدثين، وهم الذين مكّنوها من مختلف أبعادها عند استعمالهم لها، واستوعبها مَن أتى مِن بعدهم بمعنى المراتب والمنازل في باب التوازن والتفاضل،[5] إلى أن اتخذت تأويلا جديدا يبرز المذاهب والمناهج، وفي هذا الاتجاه كان تفسير ابن منظور

---

1 *سير أعلام النبلاء*، الذهبي، مقدمة المحقق بشّار عوّاد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996، 1/ 98-99.

2 السخاوي، *فتح المغيث بشرح ألفيّة الحديث*، 4/398-399

3 عندما يصنّف الشعراء فيقول : *«... ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا، وزمنا طويلا، يردّد فيها نظره، ويُجيل فيها عقله، ويقلب فيها رأيه، اتهاما لعقله، وتتبُّعا على نفسه، فيجعل عقله زماما على رأيه، ورأيَه عيارا على شعره، إشفاقا على أدبه، وإحرازا لما خوّله الله تعالى من نعمته. وكانوا يُسَمُّون تلك القصائد : الحوليّات والمُقلّدات، والمنقحات والمحكمات، ليصير قائلها فحلا خِنذيذا وشاعرا مفلقا. وفي بيوت الشّعر الأمثال والأوابد، ومنها الشواهد، ومنها الشوارد. والشعراء عندهم أربع طبقات : فأولهم الفحل الخنذيذ. والخنذيذ هو التامّ. قال الأصمعي : قال رؤبة : الفُحولةُ هم الرواة. ودون الفحل الخنذيذ الشاعر المفلق، ودون ذلك الشاعر فقط. والرابع الشُّعْرُور. ولذلك قال الأول في هجاء بعض الشعراء :*

يا رابع الشعراء كيف هجوتني وزعمت أني مُفحَمٌ لا أنطِقُ.

فجعله سُكّيتًا مخلّفا، ومسبوقا مُؤخّرا. وسمعت بعض العلماء يقول : طبقات الشعراء ثلاث : شاعر، وشويعِر، وشُعْرُور. قال : والشويعر مثل محمد بن حُمران بن أبي حُمران، سماه بذلك امرؤ القيس بن حُجْر. *البيان والتبيين*، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل 1990 4 أجزاء.2/9-10.

4 حيث يقول : **«** ***... وكان إسحاق بن إبراهيم الموصلي (ت:235ه/849م) أوّل من حذا حذوه (الخليل بن أحمد البصري) وامتثل هديه واجتمعت له في ذلك آلات لم تجتمع للخليل بن أحمد قبله، منها : معرفته بالغناء وكثرة استماعه إيّاه، وعلمه بحَسَنه من قبيحه، وصحيحه من سقيمه. ومنها حذقه بالضرب والإيقاع، وعلمه بوزنها... فصنع الغناء بعلم فاضل وحذق راجح ووزن صحيح وعلى أصل مستحكم، له دلائل واضحة، وشواهد عادلة... وصنع كثير من أهل زمانه أغاني كثيرة بهاجس طبعهم والاتباع لمن سبقهم، فبعض أصاب وجهل صوابه، وبعض أخطأ، وبعض قصّر في بعض وأحسن في بعض... فحملني الكلف بهم والمودة لهم والسرور بتخليد ذكرهم ... على تمييز طبقة طبقة منهم، وتسمية أهل كل طبقة بأوصافهم وآلاتهم وأدواتهم والمذاهب التي نسبوا إليها أنفسهم واحتملهم إخوانهم عليها...»*** مجلة *المورد*، (بغداد) مج 7، ع 4، 1978، عدد خاص بالجاحظ، فصل من صدر كتاب الجاحظ في "طبقات المغنّين"، تحقيق حاتم صالح الضامن، ص 159-160.

5 عادل سليمان جمال، "حاشية على مفهوم محمود شاكر لنظريّة ابن سلام النقدية"، القاهرة، *مجلة معهد المخطوطات العربية*، مج 42، ج 1، ماي 1998، [ص 95-140.] ص 124.

لكلمة "الطبقات"،[1] كما سبق له تفسير كلمة "درج".[2] فنستنتج ان ابن منظور لم ينفِ التفضيل عن الترتيب، بل أن ذلك مكمّل لهذا التميّز الذي يمكن أن يكون في أي باب من أبواب المعرفة ضمن الانتماء المذهبي أو الفقهي، أو في باب التفسير والرواية والحفظ أو في باب اللغة والنثر والشعر...[3] فالمهمّ هو محاولة البحث في مختلف العلاقات والمجالات التي تربط الشخصيات المترجم لها وتنسجم بواسطتها المصنّفات، لذلك يمكن أن يصنّف الشخص الواحد ضمن طبقات أخرى بالنظر إلى نوع العلاقة التي تربطه بكل طبقة.[4]
أخيرا يمكن أن نُحوْصل مفهوم الطبقات بأنها كانت تحمل في الأصل مغزى الاستمرارية في صلب أجيال متتابعة غير منقطعة، تحملت مسؤولية رواية مشاهداتها انطلاقا من تجربتها الروحية والتاريخيّة، كي تسلمها للأجيال اللاحقة؛ فتصبح الطبقة هي "المرتبة" التي تُسند إلى مجموعة من الأشخاص الذين ساهموا في التاريخ الإسلامي، بصفة أو بأخرى، في بلورة مجال من مجالات حضارته تبعا لمقاييس محددة ذات بُعد ديني أو لغوي أو علمي أو أدبي أو فنّي.[5]
لن أقوم في هذا البحث برصد كتب الطبقات، رغم ما لهذه الدراسة من أهمية، والتي يمكن إعدادها انطلاقا من كتب الفهارس والتراجم الحديثة مثل كتب كارل بروكلمان[6] وميكلوش موراني،[7] وجان سوفاجيي وكلود كاهين،[8] وآنجل بالنثيا ڤونزاليس[9] وعمر رضا كحّالة[10] وخير الدين الزركلي[11] ومحمد

1 « *طَبَقات الناس كل طَبَقة طَبَقت زمانها، والطَّبَقة: الحال، يقال: كان فلان من الدنيا على طَبَقات شَتَّى أي حالات،(ابن الأعرابي) : الطَّبَقُ الحال على اختلافها، والطَّبَقُ والطَّبَقة: الحال.*» *لسان العرب*، بيروت، دار صادر، ط 6، 1997، 211/10، مادة : طبق.
2 قائلا : « *...الدَّرَجَة واحدةُ الدَّرَجات، وهي الطبقات من المراتب. والدَّرَجَة: المنزلة، والجمع دَرَجٌ. ودَرَجاتُ الجنة: منازلُ أرفعُ من مَنازلَ.*» مص، ن، 266/2، مادة : درج،
3 أنظر كذلك : عادل سليمان جمال، مر، ن، ص 130.
4 المهندس أسعد سالم تيم، *علم طبقات المحدثين : أهميته وفوائده*، ص 8. « *والذي لا شك فيه أن هذا اللفظ (طبقة وطبقات) من كلام العرب قد درج على ألسنتهم (العرب) قديما للدلالة على معان مختلفة، ولما جاء عصر التدوين صار له مجاز آخر عند المؤلفين... فسموا مراتب الناس ومنازل بعضهم فوق بعض (طبقات).*» منير سلطان، *ابن سلام وطبقات الشعراء*، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط 2، 1986، ص 145-147. وأنظر: مفهوم الطبقة بين كتب الحديث وكتب النقد، ص 137-145.
5 Ibrahim HAFSI, Recherches …, *Arabica*, Tome XXIII, 1976, p 229.
6 *تاريخ الأدب العربي*، بين سنتي 1898 -1902 (ج1و2) ثم بين سنتي 1937-1942 (ج3-4-5)، وترجمه إلى العربية عبد الحليم النجّار ورمضان عبد التواب ويعقوب بكر، بين سنتي 1959 و1962. وصدر بالقاهرة عن دار المعارف في 5 أجزاء.
7 *دراسات في مصادر الفقه المالكي*. (نقله عن الألمانية : سعيد بحيري وآخرون)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988. (أنظر خاصة : كتب طبقات المالكية المبكّرة، ص 234-244).
8 *مصادر دراسة التاريخ الإسلامي*، القاهرة، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، 1998.
9 *تاريخ الفكر الأندلسي*، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1955، 718 ص.(أنظر خاصة عنصر : التراجم وفهارس الكتب، ص 267-285).
10 *معجم المؤلفين*، دمشق، المكتبة العربية، ط 1، 1957.
11 *الأعلام*، منذ سنة 1927 في طبعته الأولى (3 أجزاء)، المطبعة العربية، القاهرة، ثم في 10 أجزاء سنة 1957.

محفوظ[1] وفؤاد سزكين[2] ومصطفى شاكر[3] ومحمد حجّي[4] وعبد السلام بن سودة[5] ومحمد المنوني[6]... لكنني سأشير هنا إلى إحدى النماذج الأولى والهامة ضمن المصنّفات في طبقات الشعراء، وهو كتاب طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام الجمحي، (ت: 232هـ/ 847م)، الذي صدّر فيه برسالة في الشعر القديم وفي روّاة هذا الشعر.

تتجلى أهمية الكتاب بالنسبة للمؤرّخ في مدى إمكانية التمييز والإحاطة بكل ما كُتِب في الشعر والشعراء ضمن إطار تاريخي وجغرافي محدّد. وقد استعمل ابن سلام ترتيبه الطبقي للشعراء اعتمادا على رؤيته النقدية لأشعارهم التي تتقارب وتتشابه من حيث قيمتها اللغوية والتعبيرية، بغض النظر عن مواقعهم الزمنية (شعراء الجاهلية والمخضرمين وشعراء الفترة الإسلامية) مع النظر في تعدّد أغراض الشعر لدى الشعراء (الرثاء، الهجاء، المدح، الغزل...) منقبا عن المنحول والمصنوع بسبب العصبية القبلية والزيادات الموضوعة. وهكذا فإنه يستنتج "أشعر شعراء الطبقة"،[7] محققا في أشعارهم ومحللا لها، مقصيا ما «*لا خير فيه، ولا حجة في عربيّة، ولا أدب يُستفاد، ولا معنى يُستخرج، ولا مثل يُضرب، ولا مديح رائع، ولا هجاء مقذع، ولا فخر معجب، ولا نسيب مستطرف.*» [8] ودون شك، فإن ابن سلام قد تأثر بطريقة المحدثين في استقصاء معلوماته، ويبدو ذلك جليّا في مقدمته عندما يطرح منهجيته الساعية إلى التثبّت من صحّة ومصداقيّة المعطيات، سواء بسماعها مباشرة من مصادرها الأصلية لدى أفراد القبائل والعشائر الذين انتقل لمقابلتهم مباشرة واستفسارهم، أو من خلال الكتب التي جمعها واطلع عليها بكل حذر، مقارنا بينها وبين المصادر الشفوية.

وانطلاقا من طبقات ابن سلام وقياسا على منهجيته، نتسائل: هل بالإمكان وضع مقاربة نقدية مماثلة لتقصّي الكتابات النثريّة الأخرى بما فيها روايات الحديث النبوي والمغازي والسير؟

---

1 *تراجم المؤلفين التونسيين*، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1982، 5 أجزاء.

2 *تاريخ التراث العربي*، صدر عن مطبعة بريل في لايدن بهولاندا بين سنتي 1967، 1984، ثم صدر مجلد الفهارس عن جامعة فرانكفورت سنة 1995 التي نشرت المجلد 10 والمجلد 11 سنة 2000، وقام محمود فهمي حجازي بترجمة بعض أقسام الجزء 1 و2 إلى العربية، وصدر بالقاهرة بين سنتي 1974 – 1975.

3 *التاريخ العربي والمؤرخون*، 4 أجزاء، بين سنتي 1979 و 1994 عن دار العلم للملايين، بيروت

4 *موسوعة أعلام المغرب*، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1980، 10 أجزاء.

5 *دليل مؤرخ المغرب الأقصى*، بيروت، دار الفكر، 1997.

6 *المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى العصر الحديث*، ج1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1983. [نشر الجزء الثاني في مجلة كلية الآداب بالرباط ابتداء من ع. 12، 1986.]

7 *طبقات فحول الشعراء*، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدّة، المقدمة الثانية للمحقق 65/1 [المقدمة الأولى تمتد من ص 01 إلى ص 179، ثم يعود الترقيم من جديد للمقدمة الثانية من ص 01 إلى ص 72، ثم يبدأ كتاب ابن سلام بترقيم جديد أيضا.]

8 مص، ن، 04/1 من ترقيم كتاب ابن سلام.

أ. المصنّفات في طبقات القضاة :[1] من أوائل الكتب التي وُضعت في هذا المجال :

- كتاب : أَخْبَارُ القضاة : لوَكِيع القاضي أبو بكر محمد بن حَيَّان الضَّبِّيّ البغدادي، (306هـ/918 م). وهو من أقدم ما وصلنا في أخبار القضاة، ويضم تراجم العديد ممن تولى القضاء في جميع البلاد الإسلامية منذ عهد الرسول والخلفاء الأربعة الأوائل، ثم ينتقل إلى ذكر قضاة بني أمية وبني العباس بالمدينة ومكة والطائف والبصرة، ثم يستعرض قضاة العراق وخرسان ومصر وإفريقية والأندلس... مصدّرا الكتاب بتعريف لجوهر هذه المؤسسة ودورها مشدّدا على صفات القاضي خلال القرون الثلاثة الأولى، مع ذكر مذاهبهم في ولايتهم، وتحقيق أنسابهم وقبائلهم، ومن روى الحديث منهم، والإشارة إلى البعض من رواياتهم ونوادرهم، وتنتهي قائمته إلى سنة 301ه/914م.[2] واشتمل الكتاب أيضا على وثائق رسمية حول الدعاوى والقضايا التي تصدّرت مواضيع القضاء الإسلامي الأول، معتبرا أن أجلّ القضاة هو علي بن أبي طالب الذي ترجم له في بداية الكتاب.
- الولاة وكتاب القضاة : للكندي المصري، (ت: بعد 355هـ /966م).[3]
- قضاة مصر : ترجم فيه لمن ولي القضاء في مصر، ورتبه على تسلسلهم التاريخي في ولاية القضاء، وانتهى به إلى سنة 246ه/860م، وهو نفس التاريخ الذي توقف فيه ابن عبد الحكم (ت: 257ه/871م) ضِمنَ كتابه "فتوح مصر وأخبارها". وقد أفاد منه المقريزي في "الخطط" كما نقل عنه العسقلاني(ت: 852هـ/1448م)، في "رفع الإصر عن قضاة مصر ".
- قضاة قرطبة وعلماء إفريقيّة، الخشني القيرواني الأندلسي (ت361هـ/972م). وقد تم تاليفه بطلب من الحكم الثاني المستنصر بالله ثاني

---

1 حول القضاء والقضاة خلال التاريخ الوسيط نحيل على كتاب عصام محمد شبارو، قاضي القضاة في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، 1992، 369 ص. حيث يقوم بتحليل متميّز عن بعض النماذج المشهورة من القضاة مثل قاضي الرشيد أبو يوسف، ويحيى بن أكثم وابن خلكان وأحمد بن أبي داؤد المعتزلي والنعمان المغربي الإسماعيلي والماوردي...كما نشير إلى دراسة هامة قام بها صالح أحمد العلي تحت عنوان "قضاة بغداد في العصر العباسي"، وردت *بمجلة المجمع العلمي العراقي*، مج 18، 1969، ص 145-208.

2 قائلا في بداية التصنيف:«.. *وقد جمعت كتابا في أخبار قضاة الأمصار من عهد رسول الله ﷺ إلى زماننا هذا على قدر ما انتهى إليّ من أخبارهم وأحكامهم ومذاهبهم في ولايتهم، ومعرفة أنسابهم وقبائلهم وطرائقهم ومن رُوي عنه الحديث منهم..*». *أَخْبَارُ القضاة*، دار عالم الكتب الرياض، ص 17.

3 طبع سنة 1908 بمطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت، من تحقيق رفن كَست (Rhuvon Guest)، كما تمت ترجمته إلى اللغة الأنجليزية وطبعه سنة 1912 ونشره بليدن (هولاندا) ولندن. ورغم استقلال كل كتاب عن الآخر (الولاة) – (القضاة)، إلا أنه قد جرت العادة على طبعهما ضمن نشرة واحدة. أنظر حول هذا الكتاب : حسن أحمد محمود، *الكندي المؤرخ وكتابه الولاة والقضاة*، الدار المصرية للترجمة والنشر، القاهرة، د. ت، سلسلة "أعلام العرب" عدد 55، 203 ص.

خلفاء الدولة الأموية بالأندلس (ت:366هـ/977م).[1]

ب. المصنّفات في طبقات القرّاء.[2]

استقرّت قراءة القرآن تواترا ونقلا على سبع أو عشر قراءات، واختصّت كل واحدة منها بالانتساب إلى من اشتهر برواياتها وصارت أصولا لأصحابها. لكن تاريخ ظهور القرءات وتعددها وتطوّرها يتجاوز هذه الأرقام المتفق عليها، وتكون في أغلب الأحيان متناقضة، كما أعتبر بعضها شاذا، وقوائمها المشهورة ليست إلا انتقاءً متواضعا من مجموع القراءات المتنوعة آنذاك.[3]

ت. المصنّفات في طبقات المتصوّفة والزهّاد والنسّاك والمرابطين.

نعلم جميعا أن الخطّ الصوفي قد ظلّ على مدى القرون الستة الأولى للهجرة في صراع مع الخط السائد المهيمن سياسيا وفكريا ودينيّا.[4] فحالة الصراع ووضع الدفاع المستمر الذي وجد فيه المتصوّفة أنفسهم، أجبرهم على اتخاذ مواقف مهادنة ومرنة حاولوا بواسطتها إبعاد الشبهة عن أنشطتهم والتعبير عن انضمامهم إلى المنظومة السائدة. وقد تجلى ذلك من خلال تبنّي كتاباتهم لنفس المنهجية التي وضعها المحدّثون الأوائل من أهل السنّة. لذلك سنلاحظ

---

1 يقدّم كتابه قائلا : «*فلما أمر الأمير أبقاه الله بتأليف كتاب القضاة مقصورا على من قضى للخلفاء رضي الله عنهم، بأرض المغرب في الحاضرة العظمى قرطبة، ذات الفخر الأعظم، ولعمالهم بها من قبل، هززت روّاة الأخبار عن أخبارهم، وكاشفت أهل الحفظ عن أفعالهم، وسألت أهل العلم عما تقدّم من سيرهم، قولا وفعلا، فألفيت من ذلك فصولا تروق المستفهمين، وقصصا تبهج السامعين وأخبارا تدل الناظرين .. وعلى من استقضاهم من الخلفاء.. وقد رأيت أن.. ذكرهم، ووصف مقاماتهم.. ثم أسير إلى وُلاة القضاء، قاضيا فقاضيا*» *قضاة قرطبة*، تحقيق إبراهيم الأبياري ط 2،1989،ص25-26

2 أنظر حول القرّاء، دراسة هاني حسين حمّود، القرّاء والحركة الفكريّة في العهود الإسلاميّة الأولى، *مجلة الذخائر*، ع 01، السنة 2000، ص 39-66.

3 أنظر في هذا الصدد : تيودور نولدكه، *تاريخ القرآن*، ص 555-675 وخاصة العنصر : " ج " حول تطوّر نظام القراءات السبع الكلاسيكيّة، ص 641-651. وأنظر : جولدتزيهر إينياس، *مذاهب التفسير الإسلامي*، ترجمة : عبد الحليم النجّار، القاهرة - بغداد، مكتبة الخانجي - مكتبة المثنى، 1955، ص 53-70.

4 هنالك العشرات من الدراسات التي استعرضت تاريخ وفلسفة التصوّف الإسلامي، لكننا نشير هنا إلى بعضها فقط :

- جولدتزيهر إينياس (Ignaz Goldziher): *العقيدة والشريعة في الإسلام*، (نقله إلى العربية وعلّق عليه: محمد يوسف موسى، عبد العزيز عبد الحق، علي حسن عبد القادر)، بيروت، دار الرائد العربي، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتاب المصري، 1946، ص388 .[أنظرالقسم الرابع: الزهد والتصوّف، ص 119-166.] وفي كتابه الثاني : *مذاهب التفسير الإسلامي*، ترجمة هبد الحليم النجّار، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1955، [عنصر: التفسير في ضوء التصوّف الإسلامي، ص 201-285.]
- جورج شحاتة قنواتي، الفلسفة وعلم الكلام والتصوّف، مقال ضمن كتاب جماعي بعنوان : *تراث الإسلام*، ج 2، عالم المعرفة عدد 234، الكويت، 1998، ص 62-91. (ترجم المقال : محمد عبد الهادي أبو ريدة).
- بنسالم حميش، *التشكلات الإيديولوجيّة في الإسلام* : الإجتهادات والتاريخ، بيروت، دار المنتخب العربي، 1993، ص 66-86.
- ماسينيون ومصطفى عبد الرازق، *التصوّف*، لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلاميّة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1984، 132
- آن ماري شيمل، *الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوّف*، منشورات الجمل، كولونيا، 2006، 519 ص.

أن عديد الكتب المصنفة في طبقاتهم قد أثبتت جدارتها في بناء سلسلة متّصلة من رُوّاتها ومن مؤسّسي الاتجاه الصوفي عبر الأجيال، فيزعمون الانتماء أصلا إلى الحسن البصري (ت: 110ه/728م) وعلي بن أبي طالب، ثم إلى النبيّ مباشرة؛ المالك للحقيقة النورانية الروحانية اللدنية التي تسلمها "رجال الغيب" جيل بعد جيل وطبقة إثر طبقة، عبر النقباء والنجباء والأبدال والأمناء والأولياء والأقطاب.[1] ولتجسيد أسانيدهم، تمّ اصطناع سلسلة وهميّة من الروّاة، على شاكلة منظومة الحديث بغية الذود عن قضيتهم. ورغم أن مصنّفي كتب الفهارس قد أشاروا إلى أن بداية الكتابة في طبقات الصوفية قد كانت منذ أواخر القرن الثالث هجري، مع محمد بن علي بن الحسن الترمذي الخراساني المشهور بالحكيم (ت:285هـ/898م)، يليه محمد بن عاصم بن يحيى الإصفهاني الشافعي (ت:299هـ /911م)، ومحمد بن زياد العربي (ت:340هـ /952م) تلميذ أبي القاسم الجُنيد (ت:297هـ /910م)،[2] إلا إننا لا نستطيع إبداء أي رأي في محتويات ما كتبوه نظرا لفقدان مصنّفاتهم. وأوّل الكتب التي حُفظت وتمّ تحقيقها ونشرها تلك التي ظهرت مع بداية القرن الخامس للهجرة، مثل كتاب السُّلمي النيسابوري، (ت:416هـ/1025م)، *طبقات الصوفية ويليه ذكر النسوة المتعبّدات الصوفيّات*،[3] برّر فيه وضع كتابه ومفسّرا الطريقة المتّبعة عند تأليفه.[4]

ث. المصنّفات في طبقات فقهاء المدارس السنيّة :

تجدر الإشارة إلى أن مصنفات القرون الأربعة الأولى قد كُتبت لدى المالكيّة مع أبي العرب محمد، (ت: 333ه/944م)، ضمن كتابه *طبقات علماء إفريقيّة وتونس*، يليه الخشني (ت: 361ه/971م)، في *طبقات علماء إفريقيّة*.

أما طبقات الحنفية والشافعية والحنبلية فلم تظهر إلا مع منتصف القرن الخامس.[5] وبالنسبة لطبقات الظاهرية فلم نتوصل لأي مصدر كُتِبَ في تراجم هذه المدرسة السنية، ويبدو أن هنالك كتاب مفقود بعنوان "أخبار أهل الظاهر" لمصنفه القاضي أبو بكر بن الأخضر (ت: 429هـ/1038م)، ذكره أبو إسحاق الشيرازي الشافعي الفيروز أبادي (ت: 476 هـ/1083م) في كتابه

---

1 أنظر حول هذه المراتب : *موسوعة مصطلحات التصوّف الإسلامي*، رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1999.

2 Ibrahim HAFSI, Recherches …, *Arabica,* Tome XXIV, fasc. 1, Février 1977, p 28-29.

3 تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2003، 503 ص. جمع به 104 ترجمة لكبار المتصوّفة.

4 السّلمي، *طبقات الصوفية*، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة،2003،ص 20-21.

5 مثل طبقات الفقهاء الشافعية لأبي عاصم محمد العبادي (ت:458هـ)، وطبقات الحنابلة، لمحمد بن القاضي أبي يعلى بن الفراء (ت521هـ/1127م)، والجواهر المضية في طبقات الحنفيّة لمحي الدين، أبو محمد عبد القادر بن أبي الوفاء القرشي (775ه/1373م).

"طبقات الفقهاء"[1] والقاضي عياض في "ترتيب المدارك".[2] لذلك قام أحد الكتّاب بجمع تراجم علماء أهل الظاهر ضمن كتاب حديث تحت عنوان : طبقات أهل الظاهر،[3] يمكن العودة إليه لما يحتوي عليه من معطيات هامة لمعرفة تراجم هذا المذهب بداية من المؤسس داوود بن علي الأصبهاني(270هـ/883م)، إلى تراجم "الطبقة السابعة"، أي الجماعة التي عاصرت القرن التاسع للهجرة.

ج.المصنّفات في طبقات الأباضيّة: من الأكيد أن كتب المذهب الأباضي قد أتلفت وضاعت خلال القرون الأولى للهجرة، ولم يحفظ لنا التاريخ إلا النادر والمتأخّر منها، فأصبحت ذات قيمة تاريخية وعلمية كبيرة، ومن أهمها نذكر:

- كتاب السير : لأبي العباس أحمد الشماخي، (أواخر القرن التاسع للهجرة).[4]

ج) المصنّفات في طبقات المعتزلة : فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة،[5] وهو مؤلف ضمن ثلاثة كتب في التاريخ والرجال وذكر المعتزلة، وهو كتاب مشهور متداول.

---

1 *طبقات الفقهاء*، تحقيق وتقديم إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، 1970، 231 ص. (ص 178-179).

2 القاضي عياض، *ترتيب المدارك*، ضبط وتصحيح محمد سالم هاشم، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1998، جزآن.7/2. وهنالك نسخة علميّة متميّزة من تحقيق محمد بن تاويت الطنجي (ج1)، عبد القادر الصحراوي، (ج2-3-4)، محمد بن شريفة (ج5)، سعيد أحمد أعراب، (ج6-7-8)، تحت إشراف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بالمملكة المغربية، مطبعة فضالة، المحمدية، ط2، 1983.

3 أبو معاوية مازن بن عبد الرحمان البُحَصلي البيروتي، مؤسسة الريّان، بيروت، 2009، 21.

4 ضمن كتاب : *دراسات شمال إفريقية*، تأليف : تادياوش ليفيتسكي، Tadeusz Lewicki ، ترجمة أحمد بومزكو، مؤسسة تاوالت الثقافية، الولايات المتحدة الأمريكيّة، 2005، ج1، 109 ص، ج 2، 41 ص. وأنظر خاصة : ليفتسكي تاديوس، *المؤرخون الأباضيون في شمال إفريقيا*، ترجمة ماهر جرار وريما جرار، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 2000.

- تحقيق أحمد بن سعود السيابي، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، 1987، جزآن. وأنظر حول الكتاب مقدمة المحقق (ص : ج- ط).
- الجزء الخاص بتراجم عُلماء المغرب إلى نهاية القرن الخامس، تحقيق محمد حسن، كلّية العلوم الإنسانية والإجتماعية، تونس، 1995، 466 ص. (كما صدر عن دار المدار الإسلامي، بيروت، 2009، 3 أجزاء.)

5 تحقيق فؤاد السيد، الدار التونسية للنشر، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، 451 ص.

- الأول بعنوان ذكر المعتزلة لأبي القاسم البلخي،(ت: 319هـ/931م)، تناول فيه نشأة الاعتزال وأصل الكلمة والاختلاف الذي نشأ حولها. وقدّم المجموعة الأولى من معتزلة المدينة ومكة واليمن والطائف والبصرة والشام والكوفة، مشيرا إلى المناطق والكور التي سيطر فيها الفكر المعتزلي.
- والثاني فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ومباينتهم لسائر المخالفين، للقاضي عبد الجبار، (ت: 415هـ/1025م)، أرّخ فيه لعشر طبقات من المعتزلة، مبرزا ترتيب علماء المتكلمين، ومؤكدا وشارحا لمبادئ الاعتزال ومدافعا عنها.
- والثالث عيون الأخبار للحاكم الجّشميّ البيهقي (ت: 494هـ/1101م)، قدّم لنا من خلاله الطبقتان الحادية عشرة والثانية عشرة من المعتزلة، ويصل بنا إلى حوالي منتصف القرن الخامس للهجرة.

ح) المصنّفات في طبقات أعلام الشيعة :

تختلف مصنفات الشيعة اختلافا كليّا عن مصنفات السنّة، سواء بالنسبة للإمامية الإثنا عشرية أو الزيدية، لاختلاف مرجعيّاتهم المذهبية والعقائدية. فمصنّفو الطبقات في الفكر الشيعي يعودون بالحديث إلى أئمتهم بدرجة أولى ثم إلى بعض الصحابة والتابعين المعروفين بولائهم لعلي بن أبي طالب، أو لبعض كبار الصحابة المساندين لعلي منذ وفاة النبيّ وخاصة إثر مقتل عثمان بن عفّان. فتنقسم الطبقات في كتبهم إلى طبقة سلمان الفارسي ثم طبقة أصحاب علي بن أبي طالب، تليها طبقة أصحاب الحسن ثم طبقة أصحاب الحسين... إلى أن نصل إلى طبقة آخر الأئمة الإثنى عشر وهو محمد بن الحسن المهدي المنتظر(اختفى سنة 261ه/874م). كما نجد تقسيما آخر يميّز الطبقات إلى أصفياء، وأولياء، وشرطة الخميس الذين وعدهم علي بالجنة،[1] وأخيرا الأصحاب.

ونظرا لتجاهل المؤلفين من أهل السنّة لتصانيف الشيعة، فإن أغلب المعلومات والمعطيات يمكن أن نستقيها من كتاب نصير الدين الطوسي (ت:460ه/1068م) وهو "الفهرست"[2] الذي يحتوي على تراجم ذات محتوي قصير جدا في أغلبها. ثم من كتاب أساسي وهو "الذريعة إلى تصانيف الشيعة" من تأليف محمد محسن نزيل سامراء، الشهير بالشيخ آقا برزك الطهراني.[3] ومن كتابه الثاني بعنوان "طبقات أعلام الشيعة: نوابغ الروّاة في رابعة المئات".[4] أو من كتاب عبد الله شرف الدين في كتابه "مع موسوعات رجال الشيعة"[5] الذي يحتوي أيضا على ثمانية أبحاث في كتب الرجال. كما يمكن أن نشير إلى كتاب محسن الأمين الموسوم بــ "أعيان الشيعة"،[6] يستعرض فيه الكاتب تاريخ نشأة المذهب الشيعي بصفة عامة وانتشاره، وما لقيه الشيعة من عدم إنصاف الناس لهم، وتحامل أهل السنة عليهم من أمثال ابن قتيبة[7] وابن حزم والذهبي وغيرهم، كما يذكر بعقائد الشيعة وفقهائهم

1 يقول ابن النديم: « ومعنى شرطة الخميس أن عليّا عليه السلام قال لهذه الطائفة تشرطوا فإنما أشارطكم على الجنة، ولست أشارطكم على ذهب ولا فضة، إن نبيّا من الأنبياء، فيما مضى، قال لأصحابه تشرطوا فإني لست أشارطكم الاّ على الجنة.» *الفهرست*، ص 307.

2 تحقيق: جواد القيومي، منشورات مؤسسة نشر الفقاهة، قم، (إيران)، 1417ه(1996م) ص 343

3 طبعة : شركة طهرانية، النجف، 1936، 26 ج.

4 مؤسسة إسماعيليان، قم، ط 2، جزآن، د.ت.(تحقيق : علي نقي منزوي، وهو إبن المصنّف، وتشير مقدمة المحقق إلى سنة 1971.)

5 دار الإرشاد للطباعة والنشر، بيروت، 1991، 690 ص.

6 تحقيق وتخريج حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 1984، 10 أجزاء.

7 أنظر الردّ الذي قام به القاضي النعمان المغربي الإسماعيلي (ت: 363ه/974م) على ابن قتيبة. تحت عنوان : رسالة ذات البيان في الردّ على ابن قتيبة، حيث يقول : «... إنه ليس بالثقة ولا بالمأمون عند العلماء بالفقه ولا هو من أهله، وهو مع ذلك عدو من أعداء الله وأعداء أوليائه، شديد النصب والطعن على الحقّ وأهله، حشويّ عاميّ ويدفع إمامة أهل بيت رسول الله وعليهم ويثبت إمامة أعدائهم ويخرج في ذلك عن حدود أكثر العامة، حتى إنه ذكر في كتابه الذي سماه "كتاب المعارف..."»

ومحدّثيهم ومؤرخيهم وكلّ مؤلفاتهم. ومن بين الكتب المنشورة نذكر خاصة :

- رجال الكَشّي، أو"معرفة الناقلين عن الأئمّة الصادقين"، لأبي عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز، (ت: 350ه/961م)، أحد كبار علماء الشيعة في القرن الرابع الهجري. من أصدقاء الكليني (ت:329ه/941م) مؤلف كتاب "الكافي". كتب الكَشّي في علم الرجال كتابه "معرفة الرجال"، المعروف بـ " رجال الكشي"، الذي أملاه الشيخ الطوسي (460ه/1068م) على طلّابه، وسمّاه «اختيار معرفة الرجال».[1] يذكر في كتابه رجال الشيعة ومعلومات متفرقة تتعلق بفرق الشيعة وأخبار أخرى.[2]

5. كتب التراجم :

تختلف كتب التراجم[3]عن كتب الطبقات في عدم اهتمامها بفئة بعينها، بل إنها تترجم على حدّ السواء لمجموعة من الأشخاص الذين يعتبرهم المصنّف ذو أهميّة في المجتمع مهما كان موقعهم مثل الملوك والسلاطين والخلفاء والوزراء والقضاة والفقهاء... فيعرّف بهم تعريفا مسهبا إن كان العلم مشهورا، أو موجزا إن كان مغمورا، حسب أهميته ومشاركته وتأثيره في الحركة الاجتماعية أو الفكريّة أو السياسية؛ ذاكرا الاسم واللقب وتتالي النسب وتاريخ الولادة والوفاة إن أمكن، ومكانها، كما يستعرض سيرته والبعض من أخباره ورحلاته، وشيوخه ومناهجهم الدينية أو الفكرية، وآراء البعض من نظرائه في شخصه، وعناوين البعض من كتبه مقحما مقتطفاتٍ من شعره إن كان شاعرا أو البعض من أقواله... وتحوّل ترتيب التراجم من الزمني الكرونولوجي إلى الألفبائي، وذلك ما يميّز عمليّا كتب التراجم عن كتب الطبقات.

لقد عبّرت الكتابة في التراجم عن رغبة المؤرخين والمصنفين في استقلاليّتهم عن المجال الديني واهتمامهم بالشؤون الدنيوية حتى إن ظلّت الغاية ذات بعد أخلاقي، للاعتبار والاقتداء بالسلف الصالح. وقد نوّه وبرّر العديد منهم الكتابة في هذا الميدان وخاصة منهم شمس الدين السخاوي (902ه)[4] الذي سرد عدّة مقولات ممن سبقه.

Al-Qan□ara (AQ), XXXI 1, enero-junio 2010, pp. 77-102. [p 100.].

1 صدر هذا الكتاب الأخير سنة 2009 عن مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بكربلاء، تحقيق :أحمد الحسيني في 448 ص.

2 يقول عنه آقا بزرك الطهراني في الذريعة إلى تصانيف الشيعة : «*أحد الأصول الأربعة الرجالية ... و"كش" على مراحل من سمرقند، ويظهر من معالم العلماء لابن شهر آشوب أن اسم الكتاب "معرفة الناقلين عن الأئمة الصادقين هذبه الشيخ الطوسي ورتبه سنة 456 وأخرج منه بعض الأغلاط وتراجم العامة، ... أما أصل رجال الكشي فلا نعلم بوجوده.*» الذريعة، 141/10.

3 أنظر في هذا الصدد : فرانز روزنتال، *علم التاريخ عند المسلمين*، ص 141-148. محمد الصادق عفيفي، *تطوّر الفكر العلمي عند المسلمين*، ص 309-310. بشّار عوّاد معروف، *مظاهر تأثير علم الحديث في علم التاريخ عند المسلمين*، ص 22-41.

4 *الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ*، تحقيق وتعليق فرانز روزنتال وترجم التعليقات والمقدّمة وأشرف على نشر النص صالح أحمد العليّ، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت.، 460 ص.

كما نوّه بكتابة التراجم أيضا أبو الفرج بن الجوزي(597هـ) في كتابه "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"[1] حيث قام بوضع الشروط التي يجب أن تتوفّر في الترجمة. لكننا نلفت الانتباه إلى أنه ليس هنالك مقوّمات ومنهج متفق عليه في كتابة التراجم لدى المصنفين في هذا المجال، فكلّ حسب اجتهاداته وشغفه.
لقد ظهر هذا الصنف من الكتابة التاريخية في التراجم منذ القرن الثالث للهجرة لكنها انتشرت وتراكمت خاصة خلال القرن السابع والثامن حيث أصبحت أكثر تنوّعا، فتوزّعت على أربع مجموعات كبرى اعتمدت ضمنها الكتابة على :
1-التصنيف بالصفات أو العاهات أو السلوك أو اللون : (البخلاء، البرصان والعرجان،[2] المجانين، المتطفلين، الأذكياء، الظرفاء...).
2-التصنيف الإقليمي حيث يتم التأكيد على أعلام البلاد (إفريقية، مصر، العراق، الشام، الأندلس، الحجاز، نيسابور، جرجان،...) أو المدينة (بغداد، دمشق، أصبهان، القيروان، فاس، غرناطة...).
3-التصنيف حسب الاسم أو اللقب أو الكنية (من سُمّي عمرا، المحمدون، من ينسب إلى أمه...).
4-التصنيف بالترتيب الزمني للأعلام حسب سنة الوفاة، من الأقدم إلى الأحدث.
تعتبر أغلب كتب التراجم كأنها تكملة لما سبقها أو انتقاء لبعض الشخصيّات الواردة بكتب الطبقات والحوليّات وتواريخ الأسر والحكّام الذين كانوا يكلّفون من يكتب لهم سيرتهم ويقومون بالإشراف بأنفسهم على هذه المصنّفات، لذلك يكون أحيانا من الصعب التمييز بين سيرة الحاكم وبين مذكرات المصنّف.[3]

II. مصنفات السيرة الذاتية والمذكرات :[4]

إن كل من كان يروم الكتابة للتعريف بنفسه لدى قرّائه وتلامذته وعلى أولياء الأمر، كان يريد إقناع الآخرين بأنه حلقة من سلسلة متواصلة من العلماء والفقهاء[5] وليس كذات عالمة منفردة خارج المسار التقليدي، أو قائمة بذاتها.

---

1 *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*، بيروت، دار الكتب العلمية، 1992، ج19/18 للفهارس. 117/1.
2 مثل كتاب الجاحظ *البرصان والعرجان والعميان والحولان*، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، 1990، ص644.
3 فرانز روزنتال، *علم التاريخ عند المسلمين*، ص 146.
4 أنظر في هذا الصدد الدراسات التالية :
- صلاح الدين المنجد، *المنتقى من دراسات المستشرقين*، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1955،ج1، ص3-23. (بحث لكارل بروكلمان:"ما صنّف علماء العرب في أحوال أنفسهم".
- بكر بن عبد الله ابو زيد، *العلماء النين ترجموا لأنفسهم* : السيرة الذاتية، مطبعة دار الهلال، الرياض، 1405هـ (1985م)، 63 ص.
- شوقي ضيف، *الترجمة الشخصية*، دار المعارف، القاهرة، 1987، ط 4، 126 ص.
- إحسان عباس، فن السيرة، دار صادر، بيروت، دار الشروق، عمّان، 1996، 157 ص.
5 يقول كلود كاهين في هذا الصدد: sur la valeur que l'on attribue à la chaine de ses informateurs. » CAHEN, C, Notes sur l'historiographie dans la communauté

فمفهوم وأهداف ومضمون الترجمة الذاتيّة خلال القرون الوسطى تختلف اختلافا جوهريّا عن مفهومها وطريقة وضعها في العصر الحديث.[1] ويؤكّد هذا الاختلاف الباحث صالح المغيربي في دراسة قيّمة[2] حيث يقول : « التعريف في مفهومه الأصلي هو الإعلام[3] أو الوسم ومن عرّف بنفسه من الأعلام المسلمين قديما اكتفى غالبا برسم خطوط حياته الكبرى من ولادة ودراسة ومناصب وبتعداد مؤلفاته دون تحليل أو كشف عن باطنه.»[4] وبالعودة إلى بحث بروكلمان نجده قد ذكر العديد ممن قاموا بالترجمة لأنفسهم سواء عبر مؤلفاتهم العامة أو بإفراد كتاب مخصص لسيرتهم. ومن بين هؤلاء نذكر : ابن الداية (ت: 340ه/952م) أحمد بن أبي يعقوب البغدادي، وأبو الفرج ابن الجوزي (ت: 597ه/1201م)، والتوحيدي من خلال كتابه "الصداقة والصديق"، وابن سيناء... ثم تتضخّم الكتابات في هذا الصنف بداية من القرن السادس للهجرة.

الخاتمة

من خلال الجرد الذي قمنا به حول أصناف كتب التراجم والطبقات تبين لنا منذ الوهلة الأولى أن هذا الصنف قد اعتنى بفئات محددة من الخاصّة؛ أما بقيّة الناس، المستهدفة بالابتزاز وإرادة الخضوع، أو بالإبادة الجماعية من العامّة والفصائل الممانعة، فلا مترجم لها ولهمومها ولمصيرها.[5]
وتبرز هذه الملاحظة من خلال عناوين الكتب التي لا تهتم إلا بهذا الصنف من الشخصيّات مثل الصحابة، وفقهاء المذاهب والمدارس الدينية(الحنابلة،

---

musulmane médiévale, *Revue des Etudes islamiques*, N°44, 1976, p 87 « Il faut se rappeler qu'en islam, la valeur d'un enseignement, oral ou écrit, repose essentiellement.

1 عن الترجمة الذاتيّة، أنظر يحيى إبراهيم عبد الدايم، *الترجمة الذاتيّة في الأدب العربي الحديث*، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1975، الفصل 2، لمحة عن الترجمة الذاتيّة في التراث العربي، ص 30- 42.

2 صالح المغيربي، الترجمة الذاتية وفن الرحلة في التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، *حوليات الجامعة التونسية*، تونس، ع 10، (1973)، ص 73-86.

3 لسان العرب، مادة : ع . ر. ف. 111/10.

4 صالح المغيربي، مرجع مذكور سابقا، ص 73.

5 يشير مصطفى شاكر إلى أن كتب التراجم قد تناولت أيضا حياة« بعض التجّار وكُتّاب الدواوين، بل تحتوي أخبار بعض المجاذيب والمدلسين والمفلوكين ومشاكل الناس اليومية... ».*التاريخ العربي والمؤرخون*، طبعة 1990. (طبعة أولى). 23/3. لكننا لم نعثر على أي كتاب في التراث الإسلامي قد تعرض لحياة الفقراء والمهمشين في المجتمعات الإسلاميّة قبل سنة 1210هـ / 1795م وهو تاريخ وفاة أحمد بن علي الدلجي المصري صاحب كتاب "*الفلاكة والمفلوكون*"، الذي نشرته دار الكتب العلمية، (بيروت)، سنة 1993. وهذا الكتاب لا يستعرض تراجم لشخصيّات مغمورة من العامة، بل يترجم لـ 132 من رجال الفلسفة والشعر والأدب والفقه المعروفين والمشهورين الذين «تقلّصت عنهم دنياهم ولم يحظوا منها بطائل»[ص 66.] مثل: مالك بن أنس والترمذي، والسيرافي، وواصل بن عطاء، وسيبويه، وابن حزم والشاطبي والمسعودي...

الشافعية، المالكية، الحنفية)، ورواة الحديث (الحفاظ، الثقات، الضعفاء، المدلسون)، وعلماء الدين والشريعة (القرّاء، المفسرون) وأعيان الدولة أو المدينة (الخلفاء، الوزراء، النبلاء، الفضلاء، الأطباء، القضاة)، والمتصوّفة (الأولياء، الأصفياء، العبّاد). كما تمّ الاهتمام أيضا بالأدباء والشعراء والنحويين واللغويين؛ ووضع المعتزلة[1] والشيعة[2] والخوارج الإباضية[3] أعلامهم... فكأن إشكاليّات المجتمع والبشر والدولة لا تحوم إلا حول سيرة حياة هؤلاء، في حين أنها من الأكيد قد غيّبت ما هو أعمق من ذلك بكثير.[4]
وإن سمحت ثقافة النّخب بوضع أعلامها ضمن طبقات، « *فلأن أنظمة السياسة والاجتماع قد شكّلت الناس وضبطتهم في طبقات مُقفلة... طبقة الخاصة وطبقة العامة، فتفرّع من كل طبقة طبقات وأتباع وفروع تتشعّب وتنتهي إلى الدائرة الكبيرة، خاصة أو عامة...*»[5]
ومن هذا المنطلق العام يمكن النظر إلى موضوع البحث في الكتابة ضمن صنف الطبقات والتراجم والسير، ولهذه الأسباب، يصبح لمنهجيّة إعادة قرائتها دور أساسيّ في الكشف عن دواليب الدولة والنّخب عند إدارتها لشؤون المجتمع، وفي تماسكها وتوالدها وتركيبتها وسيرورة نظامها الاجتماعي والمعرفي، والتخلي عن النظر إلى الترجمة الشخصية كمسار أحاديّ، متواصل، غير منقطع، وغير منفصل عن مجالاته ومؤثراته الاجتماعية؛ لأن القبول بهذه القراءة التي تتبّع حياة المترجم له كجملة مسار موّجه نحو غاية مسبقة ببداية ونهاية، مع محطّات مكانية محدّدة؛ يعني القبول بنظرة القرون الوسطى لفلسفة التاريخ، والتي اعتمدت على اعتبار الحضارة الإنسانية كتعاقب للمراحل في شكل دورة[6] تنتهي بالانحطاط. هذه النظرة لا تعبّر عن منهج في التفكير والكتابة فحسب، بل تعبّر أيضا عن تصوّر للعلاقات الذاتيّة وعن منهج متعارف عليه لدى كل مفكّري العصور القديمة

---

1 أنظر : *فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة*، البلخي أبو القاسم: (ت: 319هـ)، القاضي عبد الجبّار (ت: 415هـ)، الحاكم الجشمي (ت: 494هـ)، تحقيق فؤاد السيد، تونس/ الجزائر، الدار التونسية للنشر/ المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 2، 1986، 451 ص.

2 أنظر : *طبقات أعلام الشيعة* : آقا بزرك الطهراني، *نوابغ الروّاة في رابعة المئات*، مؤسسة إسماعيليان، قم، ط 2، جزآن، د.ت.

3 أنظر : *كتاب السير*، لأبي العباس أحمد الشماخي، ضمن كتاب : *دراسات شمال إفريقية*، تأليف : تادياوش ليفيتسكي، Tadeusz Lewicki ، ترجمة أحمد بومزكو، مؤسسة تاوالت الثقافية، الولايات المتحدة الأمريكيّة، 2005، ج1، 109 ص، ج 2، 41 ص. كما صدر سنة 2009 عن دار المدار الإسلامي ببيروت في 3 أجزاء. وأنظر : *طبقات المشائخ*، لأبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني. وأنظر : ليفتسكي تاديوس، *المؤرخون الأباضيون في شمال إفريقيا*، ترجمة ماهر جرار وريما جرار، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 2000.

4 Levi Giovanni, Les usages de la biographie, In: *Annales. Économies, Sociétés, Civilisations*, 44e année, N° 6, 1989, pp, 1325-1336.

5منير سلطان، *ابن سلام وطبقات الشعراء*، ص

6 Bourdieu Pierre, L'illusion biographique, In: *Actes de la recherche en sciences sociales*, Vol. 62-63, juin 1986, pp, 69-72.

والوسطى سواء في المجال الإغريقي أو الروماني أو المسيحي الأوروبي أو العربي والإسلامي عموما. ولتجاوز هذه العقبة وفتح آفاق البحث، يمكن النظر إلى مشروع إعادة قراءة التراجم والطبقات من خلال شرح الهيكلة الخاصة بكل ترجمة، كنتيجة تكوّنت على مستوى أفقي من نقطة انطلاقها إلى نهايتها، وكفعل اجتماعي ساهم في تثبيت أو في إقحام تحوّلات للهياكل الاجتماعية والسياسية والثقافية الأخرى.[1] إنه مجال شاسع للبحث لا يكتفي باستغلال هذا الصنف من الكتابات كمصدر للكتابة التاريخيّة فحسب، بل يجب البحث في طبيعته الأولى التي رُسِم من أجلها، وفي كل ما يُمكن استنتاجه منها على كل مستويات العلوم الإنسانيّة وخاصة منها مجال تاريخ الذهنيّات والعقليّات.

لقد استخدمت كتب الطبقات والتراجم لاستخراج علوم مولّدة مثل أصول الفقه والحديث والتشريع، ويمكن اليوم استخدامها لأغراض جديدة ضمن مجالات معرفية متعددة تتشكل موازاة مع بقيّة أصناف المصادر مثل كتب الرحلات والجغرافيا والفهارس وبرامج الشيوخ والنوازل والفتاوى وكتب المناقب[2] التي وُضِعت أساسا للتمجيد بالنسبة لأهل السنة، أو تعبيرا عن الولاء بالنسبة للشيعة. ومن هذا المنطلق يمكن أن تفتح لنا مجالات أخرى للبحث لا يمكننا تخيّلها،[3] فهي لا تقلّ أهمية عن بقيّة كتب التراث العربي، التي تزخر بمعطيات ثمينة تسمح للباحث المعاصر في التاريخ الوسيط الإسلامي بترصّد المعلومات التي لا نجدها في الحوليّات التي تركز بصفة خاصة على الأحداث السياسية والصراعات المذهبية.

---

1 Passeron Jean-Claude, Biographies flux itinéraires trajectoires, p 20.

2 Méouak Mohamed, Les méthodes biographiques et prosopographiques: leur application pour l'histoire sociale d'al-Andalus (milieu IIe / VIIIe - fin IVe/Xe siècles), In: *Mélanges de la Casa de Velázquez*, Tome 28-1, 1992, pp. 199-208. [p 206.].

3 Klapisch Zuber Christiane, Du pluriel au singulier ou de la collaboration entre histoire quantitative et prosopographique, In: *Mélanges de l'Ecole française de Rome*. Moyen-Age-Temps modernes, T. 100, N°1, 1988, pp, 241-245.